نقطة ـــ بيضا

رانيا الطنوبي

المقدمة

من وحي مواقف الزمن تولد الأفكار ، تنشأ الرؤي ، و ندرك معني الاختلاف
إنها الحياة !

يأس و أمل ، حب و كراهية ، فرح و حزن ، ولو طلبت من أحدهم أن يُعرف
أيًا مما سبق ، فلن تجد اثنين متفقان علي صيغة واحدة .

لكل منا مفرادته و حروفه و لغاته ، أدواته التى تحمل بصمته دون تشابه مع
غيرها .

و من هنا !!!

إليكم و إلى من يهمه الامر---- نقطة

قد تكون بأول السطر أو آخره ، بكوب ماء فتعكره ، أو نهر راكد وعلى الرغم
من ذلك تزلزله ، أو لمن ينتظر لحظة الشروق أمل ، إنها المطلة لتعلن عن ميلاد
الفجر ، إنها ----

نقطة __ بيضا شقت طريقها رغما عن ليلة حالكة .

)1(

أسلحة خاصة

تعالت صرخاتهما و لكن ما الجديد ، إنه ما اعتاده بيتهما ، كانت تريد أن توضح الأمر أكثر و لكنه صد شفتيها بكفه صارخاً : كفى.

تنهدت بحنق و قد شعرت ببالغ الأسى و قالت و الدموع تنهمر من عيناها : أنت لم تعد تشعر بي و أنا ما عدت فارقة.

زفر و هو يجوب الغرفة حانقاً يريد أن يكسر شيئاً أمامه لعله يسترح ثم أجابها : بل أنتِ التي ما عادت تسمع أو تفهم و كأن أذنيكي أصابهما الصمم.

صرخت بأقصي ما لديها من طاقة دفاع هاتفة: في كل مرة أنا المذنبة ، لا هذه المرة الذنب ذنبك أنت.

صرخ بصوت أعلي : لولا تعنتك ما كنت لأتصرف كهذا ، أنتِ المذنبة ، أنتِ كلمة السر بكل أزمة أقع بها.

ردت بدموع مكلومة : أنا!!

جذبها من ذراعيها و رد بغيظ : نعم أنتِ ، لو أنك تمتلكين عقل يفكر قبل التصرف ما كنا لنخسر ، لكن غيرتك العمياء جعلتكِ تتصرفين بحماقة

ـ ألا تشعر أن كلامك يجرحني ، أليس من حقي أن أغار عندما أراك تعامل كل غريبة أفضل مني ، ألا تشعر أن ذلك يؤلم؟

ـ هذا ما عندي و إن كان يجرح ، فلولا غبائكِ ما قُلته

ـ بل أنت المتسلط الأناني المتعجرف و أنا ما عُدت أحتملك

ـ أهذه طريقة تعامل بها زوجة خلوق زوجها؟

ـ هذا ما عندي.

سحبت يدها بينما اندلعت من عيناه شرارات الحنق فقال عندها : أتعرفين.... لم أندم على شيء فعلته بقدر ندمي علي مشاركتك لي حياتي ، لو عاد الزمن لفكرت ألف مرة.... ثم تراجعت عندها.

قالها و اتجه للرحيل، تعرف أنه سيذهب إلى أصدقائه ليقضي المساء برفقتهم ثم يعود بعدها لينام ،إنها حاله في كل ليلة .

صعدت غرفتها و ظلت تجوبها، يلوك الضيق صدرها ، هو الآن سعيد بينما هي كادت تموت قهرا، تريد شيئا يشفي حنقها من طريقته، ظلت تفكر قرابة الساعة ، تضم يدها و تضربها بالحائط إلى أن انتهي بها الأمر لفكرة ، كانت تدرك أنها مجنونة و لكنها عزمت علي تنفيذها، اتجهت لغرفته و عند مدخل بابها، أسقطت

كوب من الزجاج فتناثرت قطعه، فنظرت لها ببعض الراحة إذ أنه حين يعود بالظلام لن يلاحظه..

لم تلحظ قطعة الزجاج التي سقطت على المنضدة المجاورة للباب، همت بالخروج و لكن يدها انغرست بقطعة الزجاج على المنضدة فصخرت بشدة من الألم ، الذي ازداد و هي تحاول أن تخرج القطعة من يدها إلى أن انتزعتها ملطخة بدمائها، أزالتها و لكنها لازالت تتألم و لايزال الجرح ينزف و رغما عنها بكت... نظرت للزجاج المتناثر بالارض، كفكفت دموعها واتجهت للمطبخ وقد قررت أن تزيل الزجاج من الغرفة ، انتهت ثم اتجهت مرة أخري للمطبخ وأحضرت حقيبة الإسعافات لتضمد الجرح، جلست و فتحت كفها و نظرت إلى الجرح لولاه ما شعرت بالألم و لولاه ما صرخت و هنا توقفت لهنيهة... و فكرت (جرح أدى إلى ألم أدى إلى صراخ) ، مشاجرة أشبه بقطع الزجاج المتناثرة ، خرجت من حناجرنا ، و انغرست بمشاعرنا و فجرت الألم ، فتعالى الصراخ بكَفَى..... و لكننا لم نكف.

أمسكت بزجاجة المطهر و بدأت تمسح الجرح، زاد الألم فانهمرت دموعها أكْثر ، أكانت من شدته أم ندماً على فعلتها، لا تدري.

ضمدت الجرح و خرجت من المطبخ و لكنها عوضا عن الصعود لغرفتها ، جلست على إحدى المقاعد لتفكر بالأمر من بدايته، أسندت رأسها للخلف ثم

أغمضت عيناها تتذكر الحفل المنصرم منذ خمس ساعات، كيف تصرف زوجها معها إذ كان مشغولاً و زميلته، يعلق فتضحك، تتكلم فيسمع، أما أنا فجلست في إحدى الزوايا أتابع، إلى أن استوقفني أحد زملائه هاتفاً فيّ : أنتِ إذن زوجة المهندس آدم؟

ـ نعم أنا.

و بدأ الحوار عن الحفل و الشركة و بعد دقائق كان آدم يتوسطنا و الضيق قد أعاد تشكيل ملامح وجهه، ابتسمتُ بينما قام زميله بإطرائي معقباً لزوجي أنه قد تشرف بمعرفتي، هنا رد آدم بابتسامة باردة و لولا الحاضرين لقام بصفعه ثم جذبني من يدي في هدوء بينما فرك يده من الغيظ معقباً أن لنا منزلاً و سنتحاسب على ما فعلت ، لم أعبأ إذ يكفي أنني رددتُ له فعلته.

و عند عودتنا احتدم الخلاف و بعد لحظات صرخنا، صرخنا لأننا كنا نريد أن نصرخ ، فالصراخ كان الغاية، لم يكن آخر موقف هو سر الألم بل بدى لي أن الجرح أعمق ، صراخ مكتوم أتاه المتنفس لخرج يسري مختلطاً بكل ما نحمل.

اعتدلت و فتحت عيناها و تنهدت ثم ابتسمت ساخرة، لكن عيناها اغرورقت بالدموع، جاهدت لمنعها و هتفت: إلى متى؟؟

سؤال لاح بالأفق ..... لِمَ نعامل بعضنا هكذا؟ أهكذا يكون السؤال أم أن هناك ما ينبغي أن نسأله و لازلنا لم نتداركه بعد، شعرت أنها كادت أن تقترب من موضع

الجرح بينهم، عندها لاح السؤال و هو (كيف تعامله زميلته)؟ و (كيف أعامله أنا)؟

أو (كيف أتعامل مع الغرباء و كيف أحرص علي صورتي عند الجميع متجاهلة إياها أمامه)؟

حددنا أين موضع الجرح؛ "إذن فلنطهره" هتفت و قد أمسكت بهاتفها و بدأت بالضغط على أزراره ثم ابتسمت و هي ترى علامة وصولها.

كان آدم شارداً يغمره الضيق حينما علا صوت هاتفه بالرنين، وجد رسالة من زوجته، زفر دون أن يفتحها قائلاً في نفسه : أسُبة أم شجار أم طلب طلاق؟ لم يكن يدري لكنه فتحها، قرأها و هم واقفاً و اتجه مسرعاً للباب و ركب سيارته و عاد لمنزله، صعد غرفته ليجدها تجمع ملابسها بالحقيبة فهتف فيها : ما الذي تفعلينه؟

ـ أجمع ملابسي و في الصباح سأمضي.

ثم وضعت يدها علي وجهه و نظرت بعينه و أكملت: و سأتمني لك السعادة لأنك بالفعل تستحق ما هو أفضل مني و على كل حال، أعتذر ثانية عما بدر مني.

أمسك بوجهها و قال : أهذ ما كانت تعنيه الرسالة؟ ثم فتحها و قرأ (أما أنا فلن أندم على رجل أحببته و سأظل أحبه للأبد، و مدام نادماً لوجودي فسأتنحى بعيداً عنه متمنية له السعادة التي يستحقها)، ما هذا بربك؟!!!

ـ هذا ما تريده، أليس كذلك ؟

زادت ابتسامته ثم تنهد و رد : أتعلمين؟ سأقول لكِ سراً، لا تستفزي رجلا لأنه حين يغضب يكون الكائن الأكثر حماقة بكوكب الارض.

ضحكت و ردت : أهذا ما لديك؟

ثم ردت و قد بدى على ملامحها الحزن : أتعلم أنت؟ لا تهين امرأة.... لأنها عندما تُجرح لا يضاهي هشاشتها شئ بكل الكون.

ـ إذن أعتذر، أنا لم أكن أقصد ما قُلته و لم أكن أعنيه ، فلو أن كلامي كان في معناه فلم استشطت غضبا، حينما شعرت بالغيرة عليكِ؟

تنهدت و ردت : لم أكن أقصد ما اعتقدته و أتمنى أن ننهي هذا الامر

ـ حسنا ، و لكن عديني ألا تغاري أو تصرخي إذا غضبتي.

حوطت عنقه بذراعيها و قالت مداعبة : أتريد وعداً من أنثى ، إن الشئ الوحيد الذي بمقدورها أن تفي به ، هو أن تعدك ألا تعد .

(2)

ثورة ناعمة

وصلا لتوهما وما إن وطأت قدميهما المكان حتى غمرتها سعادة بالغة " وأخيراً تحقق الحلم وامتلكنا منزلنا "

هتفت بفرحة وهي تراه أمامها رغم سوء حالته, وعادت تكررها "منزلنا منزلنا "

بتأفف واضح سألها متهكما: "لمَ كل هذه الفرحة؟ إنه منزل قديم وحديقته خربة ولكي يصلح للسكن يحتاج لأكثر من ثمنه نقوداً "

ثم بدأ يشير إلى كل ما يحوي وهو يكمل : انظري إلى النوافذ

- سنصلحها

- انظري إلى الحوائط

- سنقوم بدهانها

- والحديقة

- سنزرعها

كلما عقب بكلمة كان ردها حاضرا فزفر بشدة ثم سأل متحديا إصرارها : ومن أين ستأتين بالمال؟

- ستتدبر

تركها وجلس على إحدى درجات السلم والتي تؤدي للطابق العلوي دون أن يتفوه بكلمة فجلست إلى جواره وقالت بتفاؤل : لقد تبقى معي مبلغ وبعض المشغولات الذهبية سنبيعها ونشتري الدهانات للحوائط وبأيدينا سنفعلها و

البذور للحديقة وسنزرعها وأعدك أن يكون منزلاً آخر قبل مجيئ جدك و ستحصل منه على النقود و سيراك الرجل الذي يستحق أن يضع فيه ثقته

ـ وماذا سأفعل في عملي؟

ـ اذهب ولا تحمل هماً وأنا سأتدبر أمري ، اذهب ولا تقلق لأنك تركت خلفك رجلاً.

بابتسامة عريضة أجابها : أصادقة فيما تقولين؟

ـ اتركني وسترى بنفسك.

قام من مكانه واتجه ليرحل قائلاً وهو يودعها : حسناً ، عشر أيام وسأعود و أري ماذا فعلتي ، اتفقنا؟

بسعادة امتزجت بالتحدي أجابت : اتفقنا.

تركها ورحل وبدأت هي في كدٍ تعمل، أحضرت ما أرادت وواصلت العمل ليلاً بنهار علها تستطيع أن تنجز، عشرة أيام هي حصيلة ما تملك من وقت حتى يعود زوجها ليفتخر بما صنعت ، كانت تنام بالكاد بعض سويعات من شدة تعبها و توفر في طعامها لتستطيع تدبير معيشتها، و في أوقات الراحة تجلس لتتخيل حياتهم هنا سوياً و أولادهم و الحديقة بعدما تزرعها

حل اليوم التاسع فهاتفها وببالغ فرحتها سردت عليه كل ما فعلت لقد أوشكت علي الانتهاء من طلاء المنزل لم يتبقي سوى غرفة أو اثنين وانتهت فقط من الحديقة

الأمامية وتبقت الخلفية لكن وضعه سيكون أفضل حالاً لكي تستقبله وسألت :
ستأتي صباحا؟

- نعم
- وأنا أنتظرك

أنهت المكالمة و نظرت في المرآة لحالها ـ شحبت ذبلت ـ و لم تنتهي بعد من المنزل ولايزال هناك الكثير من العمل لكنها مهما حاولت فلن تنهيه اليوم و جد زوجها لايزال أمامه أسبوعين ليأتي

"حسنا، الراحة هي الخيار الجيد "

قالتها في نفسها و قد قررت أن تأكل و تغتسل و تنام لتستقبل زوجها صباحاً بحال أفضل

وصباحاً استيقظت على ضجيج سيارات كُثر فتطلعت للنافذة لتجد زوجها تجاوره امرأة حسناء و عمال ينزلون أثاثا فارها يدخلونه إلى المنزل بدلت ملابسها مسرعة و نزلت لأسفل لتجد العمال يوزعون الأثاث حسبما تشير الحسناء بينما زوجها منهمكاً في الحديث مع أحدهم فأسرعت إليه و هي تسأل بخوف : هل بعت المنزل؟

فأومأ رأسه نافيا ثم أتبع : اصنعي الشاي للعمال ولاحقا سأشرح لكي الامر.

لم تناقشه وفعلت ما طلب و لكن لايزال القلق يساورها ، حملت الصينة و خرجت بها لتقدمها حتى وصلت للحسناء و التي نظرت لأكواب الشاي بتقزز وعقبت : أنا لا أشرب في هذا ، ستأتي سيارة أخري ستحمل أثاثا خاصا بالمطبخ وأواني وأطباق وفناجين ولحين الانتهاء من ترتيب المطبخ قد نأتي بطعام جاهز أو نأكل بالخارج أنا وزوجي.

ـ وهل سيأتي زوجك؟

سألت بمزيد من القلق فأجابت الحسناء و هي تشير باتجاه زوجها : بل هذا زوجي.

وعلى إثر إشارتها سقطت صينية الشاي من يدها بما تحمل وتناثر الزجاج أرضاً لتجد الحسناء مجالا لتوبيخها : ماذا فعلتي؟ أعمياء لاترين أن العمال يوزعون الاثاث ليفرشونه

ـ من هو زوجك؟

أمسكت بملابسها وسألتها بذعر لعلها في الإشارة أخطأت ، فدفعت بيدها المتسخة عنها وهي تقول : لا تضعين هذه عليّ والزمي أدبك

ثم أكملت الحسناء بعدها : لِمَ كل هذا الذعر عزيزتي؟ هل تريدين أن تفهمي؟ حسنا سأشرح لك هذا الرجل زوجي وهذا المنزل منزلي وهذا الأثاث أثاثي هل اتضحت الأمور بعد؟ أم تريدينني أن أشرح أكثر ؟

ـ أيتها الكاذبة
قالتها ببالغ الألم ثم أكملت بعدها : بل هو زوجي أنا ومنزلي أنا ولو شئتي خذي أثاثك هذا وارحلي من هنا والآن ، وإلا فأنا من سيناديه ليطردك أنتِ
أمسكت الحسناء بيدها لتستوقفها وقالت : جميلة أليس هذا اسمك؟ حسنا يا جميلة أتعلمين شيئاً، لقد دفعتُ نص ثمن المنزل وقد كُتِب باسمي والأثاث كله أنا من دفع ثمنه.
ثم دارت حولها لتكمل : "بنقودي اشتريت هنا كل شئ بما في ذلك زوجك"
ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها وأكملت : وإن لم يعجبك الأمر فبمقدورك الرحيل فهو بكل الأحوال ينوي أن يطلقكِ لكنه سينتظر لحين أن يأتي جده و يرحل ذلك لأننا لازلنا بحاجة إليك ، فالمنزل كما ترين لايزال بحاجة لمن يستكمل أعماله ولا تقلقي سأضمن لكِ تعويضاً جيداً عن كل ما بذلتِ.
ثارت ثائرة جميلة وقد شعرت ببالغ الإهانة فهَمَتْ أن تصفعها لكنها أمسكت بيدها و قالت بحدة : أنا لا أُصفع يا عزيزتي لكن بمقدوري أن أصفع ....
وقد فعلت ؛ صفعت جميلة ثم أكملت بعدها : أرأيتِ؟
و على إثر الصفعة التفت الزوج, ولم يكن بوسعه إلا الاتجاه نحوهم و أمام جميلة وقف و نظر بحدة و سأل : ماذا فعلتِ؟
ببكاء أجابت : لم أفعل شيئا بل هي من صفعتني

فجذبها من ذراعيها وأكمل : لا تجلبي المشاكل ونفذي كلامها وحسب فهي من اليوم صاحبة هذا المنزل.
الأمر إذن صدقاً، ليس ضرباً من خيال أو كابوساً في منام ولم يهرول إليها نافياً بل جاء يؤكد الكلام وهي عليها الاستيعاب أن أحلامها معه بات مصيرها الزوال و في خضم الانهيار أتاه منها سؤال ......وأنا ؟
حسبته قد يضع وجهه أرضاً ويخجل من نفسه لكنه تبجح أمسك بكلتا ذراعيها و أجاب ساخرا : من أنتِ؟ وما الذي سأقوله لجدي لو سألني؟
بصدمة أجابت : زوجتك.
بمزيد من السخرية أجاب : أجُننتِ بل انظري إلى نفسك
ثم أشار لحسنائه و أكمل : ثم انظري إليها ، حين يراكي جدي ويراها هو وحده من سيحدد.
ثم أقترب منها ليسأل : وبرأيك...... من سيظنك؟
"خادمتي"
- "خادمتك"؟
قالها متهكما و لم تستوعب حروفها و هي تعيدها ثم ببرود أجاب : ثمة أشياء لا تتغير، يداكِ الصلبة، بشرتكِ الجافة ووجهك الشاحب و أنا أريده أن يرى أن حفيده قد تزوج من امرأة ، لا رجلاً تركته خلفي ليكمل أعمال المنزل.

ببالغ حدتها أجابت : كان بإمكانك أن تمنعني لو أن تصرفاتي ضايقتك
- ولمَ أفعل وقد كان عرضا جيدا، لقد وفرتِ لي بنداً من النقود كنت سأضطر لصرفه، لقد نظفتِ المنزل وصار أفضل وأنا لا أنكر فضلك.
صمتت فلم تعد تملك ما تقول, أما هو فتنهد ثم أتبع : والآن ما الذي تريدينه يا جميلة البقاء أم الرحيل؟ دعيني أولاً أشرح لكِ الموقف إن أردتِ الرحيل فحقك سأمنحكِ الطلاق وستخرجين من هنا إلى الشارع ، بلا نقود بلاطعام بلا مأوي توقف ثم دار حولها و أكمل : على ما أذكر لم يعد لكِ أقارب و لا أهل و لا تعرفين أحدا ، إذن قد تنامين على إحدي الأرصفة أو تضطرين للأكل من القمامة أو ممارسة الشحاذة ، أليس ما أقوله صحيحا؟ لكن أتعلمين .... قد أملك لكِ خياراً أفضل ، المكوث هنا معنا بالغرفة الملحقة بالحديقة, لقد وضعت فيها سريراً و دولاباً و زياً لترتديه من كنا سنجلبها للخدمة ، أعتقد حتى أن حاله أفضل مما ترتدين ، وسنوفر لك الطعام والشراب وبعض النقود وأعتقد أن هذا الخيار سيكون الأفضل و الآن اختاري إما المكوث أو الرحيل, إما الشارع وإما المأوى ؟؟؟
قال كلامه ثم أمسك بيد "سما" حسنائه الجديدة مقرراً أن يصعد معها إلى أعلى و بعدما صعد عدة درجات التفت إليها و هو يدرك تماماً خيارها من شدة انكسارها وعندها تابع : إن كان خيارك البقاء فنظفي مكان أكواب الشاي

المكسورة ورتبي المطبخ أريده أن يكون قد انتهى عند عودتنا ، سنخرج أنا وسما لتناول الطعام وسنعود بالمساء ، أفهمتِ؟

وصعد وزوجته درجتان فالتفتت لها سما هذه المرة و قالت : أريدك أن تعدي لنا شطيرة التفاح ليلاً، فباهر يشتهيها مع الشاي لكنه لا يحبه ساخناً فلا تنسي.

انحنت جميلة أرضاً حيث قطع الزجاج المنثور، جمعته فوق الصينية وجرَّت قدميها للمطبخ وعلى أرضه جلست ولم تبكي بل انتظرت فهي بالتأكيد ستستيقظ إنه منام مفزع سينتهي ، سينتهي الآن وبعده سيأتي باهر وينظر لكل ما صنعته ويفرح وسيتناولان الطعام سوياً ويتسامران ليلاً

لكن صدى كلامه عاد يتردد "و الآن اختاري إما المكوث أو الرحيل ، إما الشارع وإما المأوى"

وضعت يدها على أذنيها لا تريد أن تسمع كفاها ما سمعت وزاد على صدى الصوت ضجيج أحد الفئران فقامت ببالغ غيظها تهتف فيه : ألم يكفيكم بعد ما وضعته من سم لأتخلص منكم؟؟؟

واندفعت حيث زجاجة السم التي اشترتها ووضعت القليل على قطعة خبز وإلى جواره رمتها، عليها أن تهدأ وتفكر كيف لها أن تواجههم.

زاد ضجيج الفأر فالتفتت له، ليبدو أنه من شدة جوعه قد أكُل خبزها المسموم و بدأ يتلوى، تنقل بصرها بين زجاجة السم و بينه عدة مرات حتي تأكدت أنه ميت

ثم ظلت به تحدق "مات بالسم " ثم عادت تحدق بالزجاجة وصدى الصوت لازال يسري " أريدكِ أن تعدي لنا شطيرة التفاح ليلاً، فباهر يشتهيها مع الشاي لكنه لا يحبه ساخناً فلا تنسي"

فأمسكت بيدها و قد عرفت اختيارها، ستعد شطيرة التفاح مع الشاي ولن تنسى أن باهر لا يحبه ساخناً.

ليلاً كان لصرخات الاستغاثة وضعاً خاصاً و هي تشق الصمت لتعبر عبر الحجرات، فزع باهر للصوت و استيقظ و استيقظت معه سما ولكن الصرخات من غرفة جميلة و هذا لا يعني لها شيئا، قفز باهر من سريره و أسرع حيث الصرخات التي سكنت فجأة لتزيد من قلقه و يتساءل معها ـ هل سمع الجيران شيئا ـ وصل لغرفة جميلة و ما إن وصل حتي زاد فزعه فجميلة ملقاة أرضا بلاحراك و إلى جوراها زجاجة فارغة فهرع إليها يصرخ : جميلة جميلة ما الذي فعلتيه بربك؟ لكن لا جدوى فهي مغشي عليها أو ربما فارقت روحها الحياة بل هذا ما يبدو ، شعر بالفزع فظل يحاول أن يحركها و لا أمل عنده فأمسك بالزجاجة التي تجاورها ليدرك أنها اختارت خياراً آخر غير الذي طرحه، اختارت أن تموت منتحرة.

رمى الزجاجة من يده و هرول إلى الخارج ليبحث عن طبيب لعله يستطيع إنقاذها وفي عقله كل السيناريوهات طُرحت، هل يدفنها سراً، ماذا لو علم أحدهم بموتها أو اتُهم هو بقتلها، جده وقراره أن يساعد حفيده بالمال لتنفيذ مشروعه لو

رآه جديا، كل ما خطط له قد ينهار في لحظة؛ لو ماتت ستكون كارثة ولو علِم جده فالكارثة أكبر.

وتوقف فجأة ليتذكر أنه عند شراء المنزل قيل له إن هناك طبيباً يسكن بالجوار فهرول لمنزله ورجاه أن يأتي لحالة طارئة فسحب الطبيب حقيبته و هرول خلفه، وصلا لغرفة جميلة التي لاتزال على حالتها ، فاتجه الطبيب له بينما يتفحصها

ـ ما الذي فعلته بها ؟

كان هذا السؤال الأول من الطبيب و هو يراها بلا حركة.

و بخوف أجابه باهر: أنا لم أفعل شيئًا لقد حاولت أن تنتحر .

ـ حسنا لنحضر الشرطة ونتحقق

قالها الطبيب فجاءه رجاء باهر بألا يفعل، بل خذ ما يكفيك من المال و حاول أن تسعفها.

وأمام استجدائه لم يسع الطبيب إلا المحاولة فأمره أن يحملها معه إلى سريرها و بعد الفحص أجابه : لاتزال حية و لكن الأمر سيكون شاقاً جداً، علينا الذهاب بها لمشفى و فوراً.

ببالغ خوفه هتف : لا، مشفى لا، حاول هنا أرجوك سيدي، فأنا لا أريد أن يعرف أي أحد بالأمر وسأعطيك كل ما تطلب.

زفر الطبيب ونظر لها ثم أجابه: حسنا، سأسقيها دواءً سيجعلها تتقيأ طوال الليل و بالصباح سترتفع حرارتها و لابد أن تكون إلى جوراها لتمرضها و إن تجاوزت الليلة بسلام، أعدك أن تشفى.

سقاها الطبيب الدواء ثم التفت له آمرا : أحضر دلواً بجوارها و ساعدها إن حاولت التقيؤ وإن ارتفعت حرارتها فضع لها كمادات المياه الباردة لتخفيضها و بالغد سأوافيك لأكتب لك أدويتها.

ثم نظر لحال الغرفة و تابع: المكان هنا لن يساعدها ، قم بنقلها لغرفة أفضل يكون بها تهوية واحرص علي إطعامها جيدا، هذا إن كنت تريدها أن تتعافى بسرعة

قام الطبيب من مكانه ليخرج فأخرج باهر من جيبه مبلغاً ليعطيه للطبيب فنظر له الطبيب ساخراً و سأل : ما هذا؟

فأجابه باهر : ثمن الكشف.

فأتت إجابة الطبيب لتذهله : أريد خمسة الآف يا سيدي و ليس خمسون جنيها، ألم تقل إنك قد تدفع أي مبلغ في مقابل ألا تعرف الشرطة، وأن أعالجها سرا ؟

صَدَم باهر ما سمعه و ظل يحدق به لثانية و في نفسه يقول "مستغل" ثم سأله في دهشة : أتستغل الموقف،كيف تكون طبيبا وتفعل هذا؟

ساخرا أجاب : لو كنتَ شخصاً يستحق المساعدة ما كانت لتنتحر هي ثم تترجى أنت أن تعالج سراً, ثم أتعرف شيئاً؟ الحياة فرص وإن لم نستغلها تمر من بين أيدينا وقد نندم عليها.

يبدو هذا الكلام لباهر مألوفا جداً إذ أنه اعتاد قوله لكنه لم يتوقع أن يقابل شبيها له في مثل هذا الموقف وبنفاد صبر أجابه : اسمعني أنا لا يتوفر في بيتي هذا المبلغ لكن لو مر الأمر و أعطاني جدي المال، أعدك أن ......

ضحك الطبيب وقاطعه قائلاً: أعدك؟ ألا تظنها مضحكة جدا، يا سيدي ما الدافع وراء انتحار الفتاة ، ربما لو أتت الشرطة إلى هنا قد نعرف، ربما وعدتها هي الأخرى وصدقت المسكينة وهي الآن حبلى أو بينكم علاقة غير شرعية لو علمت بها زوجتك قد تنقلب عليك الدنيا أو ربما أنت من قتلتها و أتيت بي إلى هنا لتوحي لي أنها منتحرة فأكون شاهد في صالحك بينما البريئة ضحية، سيدي الوعود لا قيمة لها عندي ، بل اكتب لي شيكا و حدد لي موعداً لكي أصرفه وإلا ....

لم يكملها فجميلة قد شعرت بالتقيؤ فجرى باهر إليها ليسند رأسها لتتقيأ بالدلو ثم مسح وجهها بالماء و قد بدأت حرارتها في الارتفاع، يبدو أنها قد تستجيب لعلاج هذا الطبيب الوقح، وما باليد حيلة فهو إذن مرغم, سيفعل للطبيب ما طلبه.

ظل طوال الليل بلا نوم يمرض جميلة و قد استشاط منها غضباً، بسببها سيدفع لهذا الحقير مبلغاً هو بأمس الحاجة إليه.
وفي الصباح استيقظت سما وبدلت ملابسها وتأنقت ونزلت للأسفل لعلها تجد الفطور جاهزا لكنها لم تجد شيئا ولا أثر لباهر أو جميلة فاتجهت حيث الحجرة التي خصصوها لجميلة لتجد باهر قد نام على المقعد المجاور لسريرها ورائحة الغرفة باتت كريهة جدا، وعلى إثر ندائها استيقظ باهر مفزوعاً ليتحسس حرارة جميلة فيجدها لاتزال مرتفعة ، أفرغ الدلو وغسل يده ووجهه حيث حماما صغيرا بالغرفة و خرج يحاول الوقوف ليجد سما تريد تفسيراً لما يحدث، جلس في هدوء يسرد كل ما حدث و ما إن انتهى حتى استشاطت غضباً و ظلت تصيح : خمسة الآف، خمسة الآف ومن أجل تلك، أمجنون لتفعل؟
بهدوء أجاب : أكنا نملك حلولا أخرى؟
بغيظ أجابت : لو كنتُ هنا لتركتها لتموت، أليس هذا أوفر؟
ـ أوفر, ولكن لو علمت الشرطة و جدي, أنسيتِ أن كل ما أملك قد تم صرفه على الأثاث والملابس وحاجاتنا لمال جدي باتت حتمية, و لو علم بأمرها فلن يعطيني شيئا، علينا أن نهدأ لنحسن التصرف.
ـ بل اهدأ أنت لتتصرف وحدك، أما أنا فلا شأن لي بها سواءً كانت ميتة أم حية.

زاد غيظه فسحبها من ذراعيها و هتف فيها : اسمعي لو لم تساعديني فلا مال ولا مشروع ولا شيء ، لن ينتظرنا إلا السراب و الديون وربما السجن أفهمتِ؟
حاول التنفس بهدوء ثم أشار لها : والآن، ستفعلين ما أقوله لك ودون مناقشة، سأحملها لتنام في غرفتنا حتى تتعافى وسنطعمها جيداً وسنكمل أنا وأنتِ ما تبقى من أعمال المنزل وبمجرد أن تتعافى سأطلقها وترحل.
ببالغ غيظها أجابت: وأين سننام ولا يوجد غرفة سوى غرفتنا و أثاث غرفة جدك لن يأتي إلا قبل مجيئه بيومين؟
- سننام هنا حتي ترحل.
و أنهى كلامه دون النظر لصدمتها بما سمعت، حمل جميلة على ذراعيه و صعد بها لأعلى آمرا سما أن تبدل لها ملابسها فسألت بضيق: وأين أجد ملابسها؟
- ألبسيها شيئا من دولابك.
فهتفت بغيظ: لا مستحيل, إلا ملابسي, أتفهم؟
فجذبها من ذراعيها و رد بحزم : أنا من اشتريتهم, وأعدك أن أشتري لك بدلا منهم والآن نفذي ما أمرتك به وفورا.
وبعدما نامت جميلة كان على سما النزول للمطبخ وعلى باهر أن يستكمل أعمال الدهانات بالغرف المتبقة وبين الإشراف على تمريض جميلة وخفض حرارتها و

العمل على استكمال المنزل كان هذا هو يوم كليهما ، حتى أتت السابعة ليباشر الطبيب حالتها

"زال الخطر"

قالها للاثنين فأطمأنا, لكنه أكمل بعدها : لكن هذا يعني أننا أمام عشرة أيام حتى تتعافى لا أنها تعافت بالكلية.

"عشرة أيام" أعادها باهر في صدمة فجده قد يأتي بعد اثنى عشرة يوماً أو أقل وهو لا يريده أن يجدها، ثم سأل باهر بعدها : والآن ماذا علينا أن نفعل؟

ـ توالونها الاهتمام وتطعمونها جيدا ولاتتكرر الدوافع التي دفعتها للانتحار مرة أخرى، احرصوا أن تتحسن نفسياً و إلا فلو حاولت الانتحار ثانية فقد لا نستطيع أن نفعل لها شيئا.

اغتاظت سما مما سمعت بينما نظر لها باهر بتململ ورحل الطبيب ليتركهم يستكملوا مهمتهم، عشرة أيام وبعدها قد يتحسن الأمر هكذا كانا يُصَبِّران أنفسهما. وليلا سحبت سما نفسها وقد بدت منهكة وأسرعت إلى السرير بغرفة جميلة لتنال قسطاً من الراحة بعد يومٍ شاق خوفا من أن يطلب منها باهر أن تجاورها هي, ولأن هذا ما كان يتوقعه اتجه هو للغرفة التي مكثت بها جميلة و جاورها بالجلوس على مقعد بجوار السرير ولم يكن حتى قادراً على النظر ناحيتها ومن شدة تعبه نام فورا، كان يظن أن ليلته ستكون أفضل لكنه اصطدم بحائط الحقيقة وجميلة

توقظه بعد أقل من ساعة تتأوه من ألم معدتها وجبهتها متعرقة جدا ، لم يُشِر الطبيب أن هذا قد يحدث فماذا يفعل ، ساعدها على النهوض للحمام لتغمر وجهها بالماء و أعطاها المسكن وكوب الماء وبعد دقائق عادت للنوم فدثرها وزفر بشدة وظل يحدق بها، لِمَ النساء دوما يدفعهن غباؤهن للتصرف أم أنتي أنا الغبي هنا ولا أدري ، بربك يا جميلة لِمَ فعلتي هذا ؛ أمن أجلي ؟؟

زفر بشدة وحاول أن يعود للنوم لكن بمجرد أن غفا وجدها توقظه، تكتم غيظه وحاول التماسك بينما أشارت للماء فسقاها وعادت للنوم، لو لم ينم فقد يغشى عليه إعياءً ولو استيقظت مرة أخرى هو من سيقتلها، و فعلت... بدى هذه المرة أنها ستتقيأ فدفعه هذا للهتاف: الدلو الدلو

لكنه لم يكن موجوداً بالغرفة فأسرع بحملها للحمام لتتقيأ بالمرحاض ثم غمر وجهها بالماء و أعادها لمكانها.

"اللعنة على النساء و المال و جدي"

قالها و هو يقذف بوسادة صغيرة علي الأرض بجاور السرير و يرتمي عليها، سيموت من شدة تعبه وقبل أن يغفو تذكر الدلو فجرى للغرفة الملحقة بالحديقة لجلبه ووضعه إلى جوار السرير و أخيرا نام.

وصباحا في صمت جلس بالمطبخ, أول ما قام بفعله هو احتساء القهوة ، أتت سما لتجد هذه هي حالته فسألت بضيق : كيف أصبحت هي؟

بهدوء أجاب : على الأقل أفضل منا.
بدى من الصينية الفارغ أطباقها أنه قد حضر الفطور وأطعمها، شعرت عندها بالغيظ و سألت: وهل أكلت بيدها أم أنت من أطعمها ؟
على إثر سخريتها غلت الدماء في عروقه ووجد نفسه يقذف بالفنجان أرضاً ليهشمه، فزعت فجذبها من ذراعيها و صرخ فيها : أتعلمين شيئا لقد مللت منكِ و منها ومن انتظار جدي، اللعنة عليكم جميعا، أخبركِ أمراً ، اصعدي إلى أعلى واقتليها لأرتاح منها ومنك.
خرج من المطبخ مسرعاً لحقت خلفه فالتفت لها هاتفاً: لقد كتبت لكِ ورقة بما ينبغي أن تفعليه حتى أعود من عملي، وإن أردتِ ألا تفعلي شيئا فاحملي أغراضك و ارحلي فقد سئمت الأمر برمته و ما عاد عندي طاقة حتى لأتكلم.
خرج وضرب الباب خلفه فزفرت على إثر ما فعل و عادت للمطبخ لترى ماذا كتب بالورقة " تنظيف الحديقة الخلفية و سحب ما تبقى من أدوات الدهان و إعداد الغداء للمدللة " زاد غيظها و كادت تركل بقدميها أحد المقاعد لكنها تماسكت و لم تعرف من أين تبدأ فاتجهت حيث الغرفة التي قام باهر بالأمس بطلائها وقبل البدء نظرت لفستانها غالى الثمن الذي احتال حاله بالأمس للأسوأ و اليوم لابد من تبديله لكن لو ارتدت من ملابسها شيئاً فستتلف من الأعمال

الموكلة إليها، زفرت أكثر إذ ما عاد أمامها إلا حل من اثنتين إما ملابس جميلة الرثة و إما ثوب الخادمة.

"لعينة أنتِ يا جميلة فما الذي بات يحدث هنا"

قالتها في نفسها ثم أكملت " لقد حضرت إلى هنا لأكون سيدة القصر وأنتِ الخادمة ولكن الحال انقلب، أنا في سريرك وأنتِ في سريري أنا في ملابسك وأنتِ في ملابسي وأنا من يقوم بالخدمة وأنتِ النائمة"

لكن لا مناص من استكمال ما فُرض عليها فارتدت من ثياب جميلة الرثة وبدأت العمل و انهمكت بين المطبخ و الحديقة ورغم هذا لم تستطع إنجاز مهامها و عاد باهر و لم يجد بداً من المساعدة و حضَّر الطعام وصعد به إلى جميلة والتي بدت مستيقظة لا تتكلم و لا تبكي و لا تحرك ساكنا ، وضع ما بيده و جلس دون أن يتكلم محاولاً إطعامها لكنها أشاحت بوجهها عنه، لم يكن يملك سوى الضجر ويريد وبشدة توبيخها لكنه تذكر كلام الطبيب، لو ساءت حالتها النفسية فقد تقرر الانتحار مجدداً.

هدَّأ من ضيقه وأمسك بوجهها بين كفيه ثم قال : حمداً لله على سلامتك.

لم ترد واكتفت بالتحديق زاغ بصره عندها فلم يستطع النظر, وأكمل : دعينا من كل هذا فالطبيب قال إنك ستتحسنين.

بكت, ثم دفعت برأسها في صدره وأجابت بصوت مبحوح : وما الفائدة؟ لِمَ لم تتركني للموت؟ الموت كان أفضل خيار لم تطرحه.
ـ جميلة ، لا تقولي هذا، لا شئ في الحياة يستحق أن تموتي لأجله.
ـ فراقي عنك يستحق, فالابتعاد عنك موت محقق، أتعلم ؟
رفعت رأسها و نظرت له لتخبره : لقد شعرت بعد خياراتك أنك تجبرني على أن أموت بعيدة عنك فاتخذت قراري أن أموت بين يديك.
ـ لن أدعك تموتين فأنا هنا وإلى جوارك، تداوي وتناولي طعامك لتعود لك العافية.
ـ وسما؟ ماذا عنها؟ و أين هي؟ أراني بغرفتها, فهل رحلت من هنا؟ هل ستتركها لتكون معي ؟
ـ دعي كل هذا عنك و لاتفكري في شئ, فقط تعافي لأجلي وأعدك أن تتحسن كل الامور، أعدك أن يكون كل شئ على ما يرام، فقط تناولي الطعام و الدواء ولا تفكري.
أومأت برأسها موافقة فبدأ بإطعامها ثم أعطاها الدواء وبابتسامة مسح على رأسها و قام ليحمل صينية الطعام فأمسكت بيده وسألت في رجاء : هل أنت غاضب مني؟

زادت ابتسامته وأمسك بيدها أجاب : لن أنكر أن ما فعلتيه ضربا من جنون ولازلت أرى أنه لم يخلق أحد يستحق أن نضحي بحياتنا من أجله.
قاطعته بسرعة لتجيب بحب : أنت تستحق ، أتعلم شيئا؟ إن المرأة إذا أحبت رجلا تراه استثناء وأنت استثنائي، استثنائي الذي يستحق أن أموت لأجله.
ـ مجنونة.
قالها وخرج ثم عقب في نفسه "كم أنتِ ساذجة " لكنه لن ينكر أن إطراءها قد أرضى غروره ، فهي تراه استثناء يستحق أن تموت لأجله أما هي فضحكت على كل ما مضى، أسندت ظهرها إلى الوسادة و نظرت لسقف الغرفة تفكر فيما قالته.
" إن المرأة إذا أحبت رجلا تراه استثناء ، استثناء حتى لو كان بين الرجال لا محل له من الإعراب ، أما باهر ومن على شاكلته فلا يراها إلا مفعولا لأجله "
أنهت سما تنظيف الحديقة الخلفية و ارتمت على السرير بعدها من شدة التعب و استأنف باهر ما تبقى من أعمال التنظيف و كلمات جميلة لا تفارقه ورغما عن أنفه أمضى ليلته مستيقظاً يجاور سما ويفكر فيما آلت إليه أموره ويقارن بين امرأة تراه استثناء وأخرى ربما لا تراه بالأساس.
ومر يومان وهم على هذا الحال, جميلة تبدل في ملابس سما و تهندم حالها و تعود لتنام في السرير مسرعة وسما تبدل في ملابس جميلة وتنهمك في إنهاء المنزل ليأتي الجد فيراه مكتملا, وباهر يعود ليطعم جميلة ويقضي اليوم إلى جوارها ، تبدي دائما

بالغ سعادتها لأنه لايزال معها و لا تتحدث معه فيما ينوي أن يفعله, حديثها دوما عن ذكريات حلوة جمعتهم وأحلامهم, في البداية كان يجاريها لكن فيما بعد كان ينصت إليها ويضحكه بعضاً مما تقص ، تنهي سما عملها و ترتمي متعبة ثم يجاورها باهر ليكمل هوايته الجديدة ...."المقارنة"

مضى الكثير وتبقى القليل على مجيء الجد ولم يعد يدري ما الذي يتوجب عليه فعله "بمن يضحى سما أم جميلة "لقد باتت المعادلة صعبة.

وفي اليوم التالي كان للطبيب موعد، صعد ليرى جميلة لأول مرة، جميلة ومسكينة وحاولت الانتحار يأساً, طلب من باهر وسما أن يتركوه معها فشعر باهر ببالغ غيظه ، فضولي ومستغل "ما الذي يريد أن يعرفه أو بماذا سيخبرها"؟

خرج باهر وسما ليتركوه معها, وضعٌ فَرَضَ على باهر أن يفرك يده من شدة غيظه "أيغار عليها"؟!

تساءلت سما وهي تنظر لحالته ثم استوقفها قوله : كيف لي أن أخرج و أتركها معه؟ أنا سأدخل لهما فورا.

فأمسكت بيده لتوقفه و هي تسأل : لِمَ كل هذا التوتر؟ إنه طبيبها ويفحصها.

ـ لو لم يكن بهذا القدر من الوقاحة والاستغلال ما كان الأمر ليضايقني

فتمتمت في نفسها : وأنا لا أرى بينكم فرقا.

سمعها واغتاظ وقبل أن يرد فتح الطبيب الباب وخرج يوجه كلامه لباهر بأنها قد شفيت تماماً وبمقدورها أن ترحل، ابتسمت سما لذلك لكن باهر لم يفرح بل عقب بتردد : لكن معدتها آلمتها بالأمس وهي أخبرتني بذلك ، أخشى لو رحلت أن تتدهور حالتها و و .....

نظرت له سما ببالغ الغيظ وقد فهمت, وهز الطبيب رأسه ثم أكد أن الأمر قد انتهى والخيار الآن بات خيارها هي.

رحل الطبيب و ساد الصمت اتجهت سما إلى غرفة الصالون وجلست على أريكتها عاقدة ذراعيها أمام صدرها تنظر للجالس في شرود أمامها دون التفوه بكلمة فقررت أن تقطع هي الصمت لتسأل : متى سترحل؟

لم يرد فعقبت : يبدو أنك لا تعلم لسؤالى إجابة!

دون النظر لها أجاب : عندما تتعافي سترحل.

- ومتى ستتعافى؟

بغضب صرخ فيها : لا أدري.

فصرخت هي فيه وقد وقفت أمامه : هل تصدق حقا أنها قد ابتلعت السم فعلا؟ أراهنك أن الأمر كله كان لعبة, وربما هذا الطبيب معها و الثمن هو المال الذي دفعته أو ربما هي سوف تعطيه أكثر.

دون تفكير صفعها, هذا ما رأته جميلة من أعلى، يبدو أنها تصفع أيضاً رغم أنها نفت ذلك في أول مرة، جذبها من ذراعها و قال في حدة : أنا هنا من يقرر من تبقى ومن ترحل.
رفعت رأسها في كبرياء وأجابت: أنا لست كجميلة تذكر هذا جيدا.
ساخرا أجاب: من دون تذكير منكِ ، أنا أعرف.
تنهدت جميلة وهي تنظر إليهم، رائع هو ضرب الظالمين لبعضهم بعضا خاصة إن كنت في معادلتهم الطرف الأضعف، لا داعي لأن تكون بطلا يدفعهم للاتحاد لمواجهته فتخسر، بل ادفع بهم ليواجهون بعضهم واكتفِ بالمشاهدة وهذا ما فعلته، عادت جميلة للغرفة ووقفت تنظر من نافذتها للحديقة ، لقد بدأت براعم الأزهار التي زرعتها تتفتح، صعد باهر ليراها فوجدها على شرودها، شعرت به فظلت على نظراتها للنافذة وسألت: أتشاجرتم؟
جاورها وحوط كتفها بذراعه وأجاب: لا عليكِ.
صمتا لدقائق قالت بعدها : انظر، ستتفتح الورود عند مجيئ جدك.
نظر لوجهها وقال بترجي: هل بإمكانك أن تسامحيني على ما فعلت؟
تنهدت وأجابت : لست بحاجة لهذا، لقد وضع الطبيب حلا لمشكلتنا ، لقد عرض عليّ مأوى وطعام ومال وأعتقد أنها فرصة لا ترفض.
ببالغ غيظه أجاب : ولماذا؟ وما المقابل؟

ـ أتسأل حقا؟ أتظنه لا يفهم الأمر، إنه على الأقل يعرف بأنك تريدني أن أرحل وقد فكر بأن يساعدني، سيوفر لي عملا غير الشحاذة وطعام أنظف من المتناثر في صناديق القمامة وسأنام في عيادته حتى يعود صباحاً، سأكون ممرضته ، أليس عرضا جيدا؟

ـ وصدقتي؟ هل تظنينه رجلا شهما ليست لديه أغراض من وراء ما يفعل؟ متي ستنتهي سذاجتك هذه؟

ـ حين لا تملك خيارات جيدة ستبتعد عن الأسوأ لتختار السيء، يكفيني أنه عرض الأمر بأدب بدلاً من مساومتي على بقائي حية مقابل فتات طعام سأتشاركه وكلبك.

جذبها من ذراعيها إليه وقال بأسف : جميلة، صدقيني لم يكن هذا ما قصدته.

ببالغ استغرابها هتفت: حقا!!

ـ بل إنني نادم على كل ما قلته.

ـ حقا !!

ـ امنحيني الفرصة وسترين أنني سأقوم بحل الموقف.

ـ حقا!!

ساخرة كانت تجيب, ثم تابعت: بل اسمعني فالحياة فرص, وإن أضعناها قد نندم ، فكر معي ، بقائي يعني الخسارة وفي رحيلي المكسب، سأرحل ويأتي جدك ليجد

لديك بيت وزوجة و حياة مستقرة، لا جدوى من وجودي فلم يعد لي مكان، أتفهم ، فكر فيما ينبغي أن تكسب ولا تكن عاطفيا.

قالت كلماتها وأولته ظهرها فاتجه إليها ليحوط خصرها محتضنا ثم قال : سيأتي جدي و سيجد لدي بيت وزوجة و حياة مستقرة، لن يكون هناك مكانا فيها لأحد غيرك.

ـ وسما، ماذا عنها؟

أدار وجهه إليها وقال وهو ينظر لعيناها : أتعلمين شيئا، سيأتي جدي بالغد دون أن تعلم، وستكون بتلك الثياب الرثة تنظف منهمكة بالمطبخ ولن أحتاج لقول شيء، بل جدي سيعرف وحده من تكون دون أن أتفوه بكلمة.

بصدمة سألت : خادمتك؟

بثقة أجابها : خادمتي.

" جميلة لا قيمة لكسب المال دون أن تكوني أنتِ من يشاركني "

قالها فابتسمت وسألت : وماذا عن يداي الصلبة وبشرتي الجافة ووجهي الشاحب؟

مازحا أجاب وهو ينظر لها بإعجاب : بل انظري لنفسك، جميلة أسبوع في غرفة سما بدلكِ، حين ارتديتِ ملابسها ووضعتِ من مساحيق التجميل على وجهك واستخدمتِ كريم يديها، عُدتِ جميلة التي عرفتها عدتِ اسما على مسمى.

ممسكا كتفيها بمرح قال : جميلة, غداً موعدنا, أعدك أننا سنحتفل وقد ربحنا كل شيء، فاستعدي للغد والآن ارتاحي لكي تكوني جميلة حين يأتي جدي, وخرج من الغرفة متجهاً لغريمتها وبعد بحثٍ وجدها جالسة تشاهد التلفاز في هدوء.
فتسَاءل فيمَ تفكر، لا يخشى جميلة إذ أنه يدرك مدى سذاجتها, لكن سما ليست مثلها فذكاءها أول ما جذبه إليها.
جلس إلى جوارها وراح ينظر لعينيها ثم وضع يده مكان صفعته ثم قبلها : أعتذر على فعلتي، فأنتِ ستلتمسين لي العذر لأنك تعرفين كم الضغوط من حولي,
أمسك بوجهها بين كفيه وقال بترجي: سما لا تغضبي مني ، فأنتِ شريكتي حتى إتمام صفقتي مع جدي، لم أبخل يوماً في إثبات حُسن نواياي ّ معك، نصف المنزل ملكك، بل إنك من تملك كل شيء حتى قلبي.
لم تصدق, بل نظرت لعينه وقد شعرت بالريبة وسألت : وجميلة؟
ثم تابعت ساخرة : كيف لجدك أن يظنها الخادمة بعد كل ما وجدَته من تدليل؟
بثقة أجاب : لن نحتاج إلى هذا، لأنها سترحل قبل مجيئه، سما لقد أجل جدي زيارته عدة أيام وحتى مجيئه سننتهي من أمر جميلة.
قبل أن تنطق بكلمة وضع سبابته على شفتيها وتابع : أعدك بذلك.

قام من مكانه متجها للغرفة التي جهزها لتكون مكتبه، أغلق بابها لينظر لأوراق ملكية المنزل التي زيفها لتظن سما بأنها امتلكت نصف المنزل، ابتسم وقد قرر أن التضحية بالغد ستشمل "سما" لا "جميلة".

فمجاورة امرأة ساذجة وجميلة وتحبك وتصدق كلماتك وإن كنت تكذب و تراك وفياً و لو كنت خائناً لهو القرار الأصوب، لن تحتاج لأعذار مقبولة فمهما قلت سيكون الحق واجهتك، وإن غداً لناظره لقريب.

صباح اليوم المرتقب، خرج باهر لينتظر جده على محطة القطار واتجهت سما لتنظيف حمام غرفة الجد لم يكن قد تبقى أمامها غيره "ستنهي اليوم أعمال المنزل لترتاح وتهتم بهيئتها ليراها الجد في أفضل حال حين يأتي"كان هذا مرادها و لكن سرعان ما تهَدم ....

ـ أتشاجرتم؟

ـ لا عليكِ

ـ انظر، ستتفتح الورود عند مجيء جدك

ـ هل بإمكانك أن تسامحيني على ما فعلت

ـ لست بحاجة لهذا، لقد وضع الطبيب حلاً لمشكلتنا ، لقد عرض عليّ مأوى وطعام ومال وأعتقد أنها فرصة لا ترفض

ـ ولماذا؟ وما المقابل؟

ـ أتتساءل حقا؟ أتظنه لا يفهم الأمر، إنه على الأقل يعرف بأنك تريدني أن أرحل وقد فكر بأن يساعدني، سيوفر لي عمل غير الشحاذة وطعام أنظف من المتناثر في صناديق القمامة وسأنام في عيادته حتى يعود صباحا، سأكون ممرضته، أليس عرضا جيدا؟

ـ وصدقتِ؟ هل تظنينه رجلا شهما ليست لديه أغراض من وراء ما يفعل ، متي ستنتهي سذاجتك هذه؟

ـ حين لا تملك خيارات جيدة ستبتعد عن الأسوأ لتختار السيء ، يكفيني أنه عرض الأمر بأدب بدلا من مساومتي على بقائي حية مقابل فتات طعام سأتشاركه وكلبك.

ـ جميلة، صدقيني لم يكن هذا ما قصدته.

ـ حقا!!

ـ بل إنني نادم على كل ما قلته.

ـ حقا!!

ـ امنحيني الفرصة وسترين أنني سأقوم بحل الموقف.

ـ حقا، بل اسمعني أنت ، فالحياة فرص وإن أضعناها قد نندم، فكر معي ، بقائي يعني الخسارة وفي رحيلي المكسب ، سأرحل ويأتي جدك ليجد لديك بيت

وزوجة و حياة مستقرة ، لا جدوى من وجودي فلم يعد لي مكان ، أتفهم ، فكر فيما ينبغي أن تكسب ولا تكن عاطفيا.

ـ سيأتي جدي وسيجد لدي بيت وزوجة و حياة مستقرة ، لن يكون هناك مكانا فيها لأحد غيرك.

ـ وسما ، ماذا عنها؟

ـ أتعلمين شيئا؟ سيأتي جدي بالغد دون أن تعلم ، وستكون بتلك الثياب الرثة تنظف, منهمكة بالمطبخ ولن أحتاج لقول شيئ، بل جدي سيعرف وحده من تكون دون أن أتفوه بكلمة.

ـ خادمتك؟

ـ خادمتي.

" جميلة لا قيمة لكسب المال دون أن تكوني أنتِ من يشاركني "

ـ وماذا عن يداي الصلبة وبشرتي الجافة ووجهي الشاحب؟

ـ بل انظري لنفسك ، جميلة أسبوعٍ في غرفة سما بدلكِ ، حين ارتديتِ ملابسها ووضعتِ من مساحيق التجميل على وجهك واستخدمتِ كريم يديها ، عُدتِ جميلة التي عرفتها عدتِ اسما على مسمى.

ـ ونصف المنزل؟ ألم تكتبه باسمها والاثاث و....... ؟

ـ سأتتدبر كل هذا فلدي طريقتي الخاصة ولن نخسر شيئا، جميلة غداً موعدنا أعدك أننا سنحتفل وقد ربحنا كل شيء كل شيء ، فاستعدي للغد والآن ارتاحي لكي تكوني جميلة حين يأتي جدي.

تركت فرشاة التنظيف من يديها ووقفت ثم استدرات لتجد

"جميلة "

ابتسمت جميلة ثم اقتربت منها ووقفت أمامها وقالت في زهو : هل أعيد عليكِ ما سمعتِ أم أنك سمعتيه بشكل جيد.

صُدمت حين رأت بيدها المسجل وظلت بوجه جميلة تحدق، تنظر لهندامها ووجهها وجمال طلتها ثم تعود ببصرها لملابسها وتتحسر.

"الآن فهمت " وبانكسار نطقت: خادمته ، أهكذا إذن هي اللعبة؟

أجابتها جميلة بجدية : بل إن اللعبة لم تبدأ.

ـ كاذبة, وأنا علي يقين من أن هذا التسجيل مزيف .

ـ حقا؟

قالتها جميلة ثم دارت حولها ثم سألتها : دعيني أسألك إذن "من التي جاورها باهر ليلا بعدما نمتِ، من التي شاركها الفطور بالصباح قبل أن يرحل ، بل ومن هي التي أطلعها على سره؟؟؟

لم ترد من شدة صدمتها، ثورة جميلة إذن بدأت، ثورة أشد ما فيها نعومة الملمس وتابعت وهي تهمس بأذنيها: ألا تريدين أن تعرفي عن أي شيء أتحدث؟ سأخبرك يا عزيزتي حين تنظرين إلى هذه.

ومدت يدها بعدة أوراق لسما وببالغ العجب أمسكتها و سألت : ما هذه؟

بابتسامة تشفي: إنها أوراق ملكية المنزل الحقيقية لا التي زيفها باهر وظننتِ معها أنك تملكين نصف المنزل.

قرأتها ولم تعد تستوعب فسقطت أرضا على ركبتيها ونزلت جميلة على ركبتيها أيضا لتجاورها واضعة يدها على إحدى كتفيها لتكمل: في بلدنا القانون لا يحمي الواعي فما بالك بالمغفل، أعلم أنك قد صدمتِ ولكن حاولي استيعاب الموقف

وقفت جميلة ثم تابعت: والآن وقد عرفتِ أن جده بالطريق، فكري بما يستوجب عليكِ فعله.

ثم التفتت جميلة لتخرج وقبل خروجها أكملت كلامها : أما أنا فسأرحل، فوجودي هنا يدفعني للتقزز ، لم يكن هناك شيء بحاجة للتنظيف أكثر من نفوس أصحابه وهذا أبداً لن يحدث.

تركت جميلة سما وعادت تجمع ما تبقى لها من أغراض، تخطو نحو خروجها من المنزل وفي كل خطوة كانت تتذكر كيف قررت أن تثور عليهم بطريقتها

" بالسوق حيث محل العطارة وقفت وهتف: يا عم عبد القادر
ـ نعم يا ابنتي
ـ أتتذكر تلك العشبة التي أتتك امرأة يوم اشتريت سم الفئران من عندك وبختك عليها، تلك التي رفعت من حرارة زوجها وجعلته يغشى عليه
ـ يا ابنتي إنها آمنة ولكنها شديدة وزوجها قد شُفي ولم يتأذى
ـ حسنا ، أعطني منها "
أمسكت بحقيبتها وظلت تنظر جيدا للمنزل، إنه حلمها الذي لطالما تمنته ولكنها ستفارقه ، ليس شرطا أن يكون في تحقيق ما نتمناه الخير بل قد تكون أمانينا أحيانا هي ابتلاءاتنا ، رحلت تاركة خلفها ما لا يستحق لتبحث عما يجدي حددت الطريق وتابعت خطواتها ولمحها الطبيب فنادى عليها ثم هرول خلفها ليلحق بها فابتسمت ساخرة وهي تراه يركض متذكرة كلماته لها بعدما خرج باهر وسما من الغرفة
ـ أنا من عالجك
ـ أعرف، وأشكرك على هذا من صميم قلبي
ـ دعينا إذن نتحدث بوضوح ودون إيماءات ، لقد جمعت كل المعلومات عنكم وعرفت ما الذي دفعك للانتحار أو فلنقل التظاهر به إن شئتنا.
ـ أيها الطبيب، ما الذي تريده بالظبط؟

بابتسامة مكر لن تنساها: أن أساعدك إن كنت بحاجة للمساعدة
وقف أمامها يحاول التقاط أنفاسه وهو يسأل : إلى أين؟
فأجابته بتهكم : ولماذا تسأل؟ ما الذي يعنيك لتعرف؟
بضيق أجابها : ألم تقولي أنك ستفكرين بعرضي، منذ ذلك اليوم وأنا أنتظرك وبيتي ينتظرك وعيادتي ومساعدتي.
عقدت ذراعيها أمامها وأجابت بحدة : كف عن الانتظار إذن فقد رفضت الصفقة والآن دعني وشأني.
قالتها والتفتت لتكمل السير فهتف فيها : ولكنك بحاجة لمساعدتي.
فوقفت وبابتسامة انزوت على شفتيها أجابت : أتظنني سأستبدل الدنيئ بمن هو أدنى ، بئس الصفقة.

عاد باهر ليجد المنزل صامتا فاستقبل جده ودعاه ليدخل ، أحدهم ينزل بدلال على الدرج بهيئة ولا أروع وإطلالة مميزة صدمه أنه أمام سما فتساءل في نفسه وأين جميلة إذن؟ ببالغ الترحاب اقتربت سما من جد زوجها مرحبة به في منزلهم
فسأل باهر عندها : هذه إذن زوجتك يا باهر
لم يرد بل ظل بها محدقا فأجابت سما : نعم يا جدي ، إنها أنا
فسأل الجد : وأين الخادمة؟

أجابت سما : لقد رحلت يا جدي إذ أن الطبيب قد عرض عليها فرصة أفضل للعمل بعيادته وهذا ما قالت لي أنها اختارته.
ثم اقتربت من الجد أكثر وتابعت : لكن لا تقلق يا جدي ودعني أريك ضيافتي حتى نأتي بغيرها.
ثم نظرت لباهر وأكملت : لقد جهزت لكم جلسة خاصة بالحديقة وأعددت شطيرة التفاح ولم أنسى أنك لا تحب الشاي ساخنا.
ثم اقتربت منه لتكون أمامه مباشرةً وأنهت كلامها : وأعدك يا باهر أنك ستنبهر، وستتذوق من يدي ما لم تكن تظن أنك متذوقه.

ركبت القطار ونظرت من نافذته لطريق جديد تقطعه وأخرجت من حقيبتها رسالة عادت تقرأها بأمل " عزيزتي جميلة لقد قرأت يا ابنتي كل ما كتبتيه وعلمت بمحنتك فاعلمي أن ربك أبدا ما ينسى أحداً، اختاري الرحيل وبيت صديقة أمك لايزال مفتوحا لك ، ولاتنظري خلفك أو تحت القدم بل انظري أمامك وقفي واثبتي وإن أردتِ نصيحتي فيما كتبتِ فإليك ما أري ، لاتثوري على ظالمك بالصراخ أو الغضب إذ أن هذا سيكشف له قلة حيلتك ، بل اقلبي عليه الطاولة ففي زماننا الثورة والانقلاب باتوا وجهان لعملة واحدة "
خالتك زينب .

)3(

التعويذة

"feeling bored"

كان هو الخيار لها عندما فتحت صفحتها الشخصية على صفحة التواصل الاجتماعي خاصتها و قد قررت أن تكتب عن حالتها ، يوم كمثل بقية الأيام التي تمر دون أي جديد تحمله ، تستيقظ لتطعم أولادها و تجهز الفطور لزوجها و تحضر لذهابهم للمدرسة حتى رحيلهم ، تتجه للمطبخ تغسل ما تخلف وراءهم و تنظف بيتها و تحضر الطعام ثم تضيع الوقت فيما تبقى لها حتى عودتهم وبعد غدائهم تكون معهم على واجباتهم و المذاكرة و استكمال ما تبقى من تنظيف أو ترتيب لتستعد للغد.

"رَحى "

تدور هي في كل يوم بين فكيها لعل شيئا ما قد يحدث غداً و لكن غداً لا يأتي وإن أتى فلا جديد معه.

زفرت فلولا هذا الفيس بوك و بعض الأصدقاء الجدد لكانت انتهت فهو المتنفس الوحيد لكسر الفتور المستمر لأن حياتها تتكرر بكافة تفاصيلها بإتقان تعجز هي عن وصفه.

"ممتعضة "

كانت هي حالتها و هي تتابع منشورات صديقاتها و ما ينشرونه عن حياتهم

"سيارة جديدة ، رحلة مع العائلة في شرم ، وظيفة جديدة براتب أفضل ، عريس رغم أنها مطلقة ، طفل جديد أطل على العائلة "

"نِعم نِعم نِعم "

جميعهم يشعر ببالغ السعادة و هذا واضح جدا و هي دوما المستثناه ، لطالما تمنت لو أنها كتبت هذا المنشور منذ زمن

"نَعم ، تشعر بالملل "

بل بالغ الكآبة و السأم ، إنها لا تملك ما يملكن و لا حتى بعضه ، الراحة, الهناء, السعادة و التدليل كلها كاسمها بالنسبة لها:

"أحلام"

لكن ماذا لو شمتن بها أو استهزأن أو كتبن ببرود معهود "معلش" أو خِفن على أنفسهن أن تكون لهن حاسدة

كتبت منشورها وشعورها ثم تركته دون نشره، اتكأت على الأريكة شاردة و حانقة تنتظر جديد ، تغيير أو بارقة أمل.

لم تدري كم مضى من الوقت و هي شاردة حتى انتبهت على صوت رسالة من أحدهم ، حروف كتبت بطريقة غريبة لتكون اسم لم تفهمه و ظلت تجاهد استفهامه دون جدوى ، لكن يبدو أن الحوار المبعوث لها باللغة العربية إذ أن الرسالة هي " السلام عليك ، كيف حالك عزيزتي أحلام ، أتمني من الله أن تكوني بخير و زوجك محمد و أولادك زياد و رضوى كذلك إن شاء الله

"من معي"؟

هكذا كتبت أحلام و قد زاد استغرابها فأتتها الإجابة

"أنا المبعوثة من القدر ، قد تستغربين لو قلت لك إنتي أعرف عنكِ كل شيء حتى أنني على علم بما كنتِ ستكتبين الآن على صفحتك "

شعرت أحلام بالضجر و زفرت لأنها لم يكن ينقصها مثل هذا المزاح الثقيل و أجابت محتدة " أراكِ تحبين المزاح ولن أملك رد أفضل من الحذر عزيزتي "

فأتاها الرد بنسخة من منشورها بل و الصورة التي كانت سترفقها معه و سألتها بعدها ؛ ما رأيك يا ذات الفستان الأزرق؟ أليس هذا ما ترتدينه الآن؟ افعلي إن أردتِ فأنتِ لستِ مجبرة على هذه المحادثة و لا غيرها و لكن إياك أن تظنيني

كاذبة فأنا مبعوثة من القدر لأرفع عنكِ السأم ، إن شئتِ صدقي و إن شئتِ أغلقي هذه المحادثة والآن"

كادت أحلام تفعل و لكنها باللحظة الأخيرة تراجعت و ظلت تقرأ ما كُتب عدة مرات و بعدها سألت "كيف "؟

ـ كيف سترفعين عني السأم؟

ـ سأمنحكِ السعادة التي لطالما تمنيتها.

ـ كيف؟

ـ سأزيل من حياتك كل ما كان يضايقك و عندها ستجدين معي السعادة المطلقة.

ظلت تفكر هل من الممكن أن يكون هذا الهراء كله حق ، هل تصدق هذه المجنونة و تكمل معها المحادثة أم تغلقها و ترتاح منها، لازالت تملك الخيار, وأتاها السؤال, وما الذي ستخسره لو جربت؟ بل ربما هي على عتبات جنان ستغدق عليها و بانتظارها منشورات ستكتبها عن معنى السعادة الأبدي ، إذن لنرَ ماذا لديها و ما الذي تستطيع فعله ؟؟؟

أُكملت المحادثة سائلة : أراه كلاما بلا منطق فكيف لك أن تمنحيني السعادة المطلقة كما تدعين.

ـ عندي تعويذتي الخاصة ، إنها تعويذة الحظ ، إنها تعويذة السحر ، إنها تمنح كل شئ و تغدق بلا توقف فقط عشر مرات و بعدها كل شئ سينقلب رأسا على عقب

" الحب السعادة المال الملذات "

" الحب السعادة المال الملذات "

كانت الجملة تكتب بتكرار لا ينقطع حتى توقفت وكُتِب بعدها :

ما هو قرارك ؟ ؟

فإن كتبتِها وقرأتِها فلن تستطيعي التراجع بعدها ، أجيبي عزيزتي ؟

مترددة بين القبول و الرفض كان حالها ، لا تدري أيهما الأصوب لها ، إنها اللحظة الحاسمة، نعم أم لا و لاخيارات أخرى ممكنة ؟

" الحب السعادة المال الملذات "

" الحب السعادة المال الملذات "

" الحب السعادة المال الملذات "

عادت تُكتب بلا انقطاع أمام عينيها تدفعها دفعا للموافقة ، لن تخسر شيئًا إذا جربت, ستحاول, لِمَ لا ؟

"موافقة "

"أنا موافقة "

ـ أحسنتِ وأعدك أنك ستملكين معي كل شيء تمنيته في الخيال بل و أكثر و الآن قوليها بملء فيك.

" هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

عشر مرات متتالية و بعدها سيصيبك خدرها

ظلت ترددها كما طُلب منها بل و تقولها بكل يقينها " هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

" هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

حتى وصلت للعاشرة واستشعرت الخدر في كل جسدها و الرؤية في عينيها باتت مشوشة ، قامت من مكانها لتحضر كوب ماء لتشربه لعلها تتحسن لكن الدوار برأسها زاد, وبمنتصف الغرفة أُغشي عليها وآخر ما حدث أن سمعت صوت همس بأذنيها " أنا لك ، أنا معك ، أنا مبعوث القدر ، الحب السعادة المال الملذات ، بل وكل ما تشتهي "

جفى النوم عيناها و هي تفكر فيما حدث، استفاقت و استكملت يومها و لم يحدث أي شئ مما توقعت ، ربما عند الصباح قد يتغير الأمر ، ترجت من نفسها محاولة النوم و الانتظار دون إكثار العشم فربما الأمر مزحة لا أكثر من إحدى صديقاتها ، جاهدت عقلها التوقف عن التفكير وجاهدت أنفها أيضا للتنفس لأنها كادت تختنق ثم بدأت تسعل و هي تسأل "

"ما هذه الرائحة ؟؟"

أيقظت زوجها و هرولت لتجد النار قد قررت العبث ببيتها ، تشتعل تارة و تنطفئ تارة ثم تعود لتشتعل ثم فجأة أمسكت بكل شئ حتى غرف أولادها فتعالت صرخاتها مستنجدة بزوجها و أي أحد ، حملا أولادهما للخارج بينما حاول زوجها إطفاءها وهي أسرعت بهم إلى أسفل البناية التي يسكنوا بطابقها الأول ووقفوا بالشارع مذعورين يصرخون لعل أحدهم يستطيع المساعدة ، وبالفعل توقف لهم رجل و صعد للشقة يساعد زوجها و بعد مرور ساعة كانت النار قد انطفأت و لكن كل شيء قد احترق.

احتضنت أطفالها باكية و جاورها زوجها جالسا على الأرض في أسى يسأل نفسه " ما الذي حدث "؟ لكن لا إجابة مجدية.

نظر الرجل لحالهم ثم سأل : ما رأيكم, لو وافقتم سآخذكم معي إلى بيتي على الأقل حتى الغد؟

نظر محمد له شاكرا و مستغربا " فمن أين ظهر هذا الرجل ؟؟ ثم أجابه رافضا وعاد يفكر في حل للمشكلة ، فباغته مسرعا : لِمَ الرفض و أبناؤك في الشارع بل وزوجتك ، فكر قليلا يا عزيزي ، لعل القدر قد بعثني لكم لأكون في هذه اللحظة إلى جواركم.

رفعت أحلام رأسها تنظر للرجل لتجده ينظر إلى عينيها بقوة وجرأة لم تتوقعها
فطرقت في أذنيها الجملة الأخيرة " أنا لك ، أنا معك ، أنا مبعوث القدر"
وفي نفسها تمتمت : إنه نفس الصوت الذي سبق و في أذني همس
وركزت على كل ما ينطقه وهو يتكلم إلى زوجها : فكر قليلا وانظر إلى حالكم ،
كيف لي أن أترككم بلا مأوى هنا ، هيا معي إلى سيارتي ثم إلى منزلي وفي
الصباح سنعود معا لتتفقد منزلك إن أردت ذلك.
إلحاح ما كان ليقابل بالرفض فجاءت الموافقة ، استقلوا السيارة مشوا في طرقات
لم يكونوا ليعرفوا بها حتى توقفت السيارة أمام بوابة قصر خلاب الإطلالة
فأضواؤه تشق الليل ليبدو كقطعة ألماس ساحرة.
"ما هذا "؟
هتف الأولاد فجاءتهم الإجابة : اعتبروه بيتكم.
تحركوا عبر حديقة كانت تنبعث منها روائح الأزهار و الفاكهة دون أن تختلط رائحة
بأخرى بتميز لم يعهدوه من قبل فرض عليهم أن يلتفتوا حولهم بانبهار ليتساءلوا
"هل الجنة هنا"؟؟
كان سؤالا يجول بخاطرهم وهم يدخلون للقصر و قد اصطف خدم كُثر ، وبإشارة
واحدة من يد الرجل تقدمت واحدة وابتسمت للأطفال وقالت ملاطفة : ما
رأيكم في عشاء شهي وغرفة كبيرة مملوءة بالألعاب؟

هتفوا بسعادة واضحة وصعدوا معها دون مجادلة بينما تبادل محمد وأحلام النظر وقبل أن يتكلموا تقدمت الثانية، فتاة من شدة حُسنها كادت عينا محمد أن تقتلع ، وقفت أمامه و قالت ملاطفة : أنا هنا لأجلك ولأجل خدمتك ، اؤمر تُطاع يا سيدي.

كمجذوب سحبته من ذراعه لتصعد به إلى غرفة أخرى خصصت له وسط اندهاش أحلام مما رأت ، حتى استوقفتها ضحكات الرجل وهو ينظر إلى حالها ثم اقترب منها ودار حولها ثم همس في أذنها : لِم العجب؟ إنه حال البشر ، يبيعون أقرب الناس لهم نظير رغباتهم ، أليس كذلك يا عزيزتي ؟

كان قريبا منها إلى حد الملامسة فابتعدت عدة خطوات وقد بدت خائفة بينما اقترب هو في ثقة ممسكا بمعصمها ليستوقف حركتها فزاد خوفها فهتفت مرتعشة : من أنت؟

جذبها إليه وأجاب بهدوء : أنا مبعوث القدر.

ظلت تحدق به في خوف ثم سألت : وأين أنا ؟

زادت جرأة نظراته لها وأجاب: لا يهم فأنتِ معي وفي قصري أو إن شئتِ فهو قصرك.

لم تفهم ولن يعطِها الفرصة احتضنها قابضاً على خصرها بقوة ثم أُكمل : هل نسيتِ عهدنا ، لا تلعبي معي فأنا أكره من يخدعني ، أكره من يثير سخطي ، ألا تذكرين التعويذة ، الحب السعادة المال الملذات.

رفعت عيناها لتنظر لوجهه متمتمة : التعويذة؟ الحب السعادة المال الملذات.

ممسكا بوجهها بين يديه أتاها رده : أنتِ لي أنتِ لي أنتِ معي أنتِ معي ، ألم تفهمي بعد ، سأمنحك كل ما ترغبين والثمن "أنتِ" وإياك و النسيان ، فأنتِ من اختار ، حين منحتك حق الاختيار والآن لا فرار لقد بات الثمن حتمي وواجب النفاذ ، فأنا وفيت بوعدي حين بدلت لكِ منزلك الحقير بهذا القصر ، لقد قلت لكِ سأزيل من حياتك كل شيء كان يثير سخطك وضجرك ، لأمنحك عوضا عنه كل ما نسجتيه بأحلامك ، الحب السعادة المال الملذات هو دوري والآن دورك !!!!!

خاضعة و مستسلمة ولا حيلة لها من أمرها كان حالها معه ، فأين زوجها ليدافع عنها أو ليحررها من أسره؛ لا تدري وكأن عقلها توقف عن إعطاء الأوامر لجسدها الذي تخشب لتكون بين يديه دميته ، بدأ دفع الثمن الليلة وإلى أجل لا حدود لتسميته .

وفي الصباح فتحت عيناها لتجد نفسها تتوسط سريره ، عليها ثياب من حرير لامثيل له ، أحمر ناعم زاهي فقامت لتقف أمام المرآة لترى نفسها ، جمالها أخاذ و

كأنه أعطاها من الحُسن ما لم تملكه غيرها ، فانبهرت بزينتها و عطرها و شعرها وملابسها إلى حد ظنها أنها لو سألت المرآة التي تنظر إليها " من أجمل امرأة على الأرض فستكون الإجابة ....

"أنتِ"

قالها لتعرف أنه كان يقف خلفها يتابعها في شغف بل و يقرأ أفكارها ويجيب عليها ومنها يقترب ليحوط خصرها بذراعه وقد جاور وجهه وجهها ، لتتراءى أمام عينيها صورتهما في المرآة فيأتيها سؤاله : أرى السعادة في عيناك فهل أنتِ راضية ؟

سؤال خسف بها الأرض فغابت من عيناها سحابة الفرح وعادت لتتذكر ليلتها وما أسوأ الذكرى ، فكل شيء هنا مدفوع الثمن, و الثمن "هي".

صفق بيده فأتت صينية كبيرة عليها من الطعام كل ما تاقت له يوما ما نفسها ، إنه اليوم الأول إلى جواره ، لا حدود للعطايا ولا حدود للتغديق.

"نِعم نِعم نِعم نِعم " جميعها لها ، إنها الملكة هنا.

وقبل الشرود أو الوجوم رفع وجهها لينظر إليها بل و يطعمها بيده ، من هي لتقاوم كل ما يفعله؟ الويل كل الويل لضميرها النابض بقلبها فكلما حاولت أن تفرح وكزها فعادت لوجومها.

أتته إحدى الخادمات وتمتمت في أذنه فقام من مكانه حانقا ، الشرر يتطاير من عينيه وكأنه يتوعد أحدهم ، وقبل أن تقوم أحلام من مكانها أشارت الخادمة

الأخري إلى شاشة معلقة بجدار الغرفة ستسمح لها برؤية ما يفعله ، فوقفت أمامها لتشاهد ما تعرضه، فإذا بالصورة لزوجها يتوسط السرير وإلى جواره الخادمة لقد قضى ليلته معها غير عابئ بها ، لقد بحث عن نفسه دون أن يسأل عن زوجته ، لقد باعها, لقد خانها ، أي ضمير يملك هذا الرجل ليفعل ما فعل ، سمعت استجدائه أمام السلاح الذي وضع فوق رأسه و هو يهتف مترجيا : هي من راودتني عن نفسي هي من دفعتني إليها لقد حاولت إبعادها ولكن خارت مقاومتي.

ـ لقد عبثتَ بممتلكاتي وهذا من المحاذير عندي والآن ستدفع الثمن غاليا ، لقد فتحت لك بيتي وأنت قابلت هذا بالخيانة والخيانة هذا هو ثمنها عندي

صرخت وهي تراه جثة ، أنهى حياتها في اللحظة بل و الخادمة معه ثم نظر لمن حوله وعلا هتافه : نظفوا الغرفة وادفنوهم في الحديقة وحذاري أن يحاول أحد أن يفكر في إثارة سخطي.

توقفت الشاشة عن العرض وعاد لها مبتسما ، سحبها من أمام ما كانت تشاهد ثم احتوى جسدها المرتعش لتسكن ، بهدوء سألت : هل مات حقا ؟

أجابها : نعم ، كان يجب علينا أن نتخلص منه ، فكم مرة أثار سخطك وأشعرك بالملل و الضجر وأنتِ تجاوريه إنه يستحق الموت حتى من قبل ما فعل ، والآن لقد حررتك منه ومن وجوده ، ألا يستحق هذا أن يجعلنا نحتفل سويا ؟

انسكبت الدموع من عينيها فمسحها بيده وقال : لا تبكِ.

ممسكا بوجهها بين يديه استكمل : أنا لك أنا معك ، انظري لي جيدا كان لديك منزل يثير ضجرك فمنحتك قصري ، وزوج جبان كريه تخلصتِ منه لأني سأمنحك اليوم زوجا غيره ، إنه أنا؛ ألا يكفي؟

صدمها ما سمعت, ولم تعد تستوعب فوقف ومد يده لها لتجاوره, ثم قال : الليلة ستكونين عروسي وسترتدين لي الفستان الأبيض ، معي ستختبرين السعادة الأبدية سنستأنف الفطور ثم بعدها ستأتيكِ خادماتي ليساعدنكِ لحفلة المساء ، الليلة وحين تنظرين في المرآة ستكونين بالفعل أجمل امرأة على الأرض

كان قلبها يخفق بجنون من الخوف لا من الحب، وهل سيكون تحقيق الأحلام معه هكذا، سيخلصها من كل ما كان يشعرها بالملل بطريقته ، زاد خوفها و هي تتمتم : وأولادي؟

قالتها ونظرت حولها لتجد الغرفة باتت فارغة إذ أنه رحل بغتة ، فعادت لتفكر " السعادة الأبدية " أي سعادة هذه وهي تخسر لتكسب ، بل وتدفع لتحصل ، والثمن ليس بخسا إنه أغلى ما تملك.

حل المساء ومعه انتهت الخادمات من تجهيزها ، لتقف بعدها أمام المرآة وتدرك أنه لم يكذب ، إنها بتلك التعويذة قد امتلكت سحر نساء الأرض إذ لم تجد لجمالها وصفا ، دب الفرح في نفسها وضميرها استسلم للصمت ، وبدأت جُمل التبرير تختلس مكانها بالعقل ، الأمر يستحق ما يدفع فيه " الحب و السعادة " " المال

و الملذات" حيزت لها الدنيا فابتسمت لتستشعر أن ابتسامتها ملأت الغرفة بضوء من شدته أغلقت الخادمات أعينهن ، لكن صورة أولادها عادت لتصارع في خضم الأفكار لعلها تستعيد مكانتها ، لايزال الضمير حيّ ولايزال العقل يفكر

"وهذا هو السر يا ملكة "

" هذا ما تمتازين به عنا "

جاورتها إحدي الخادمات وهذا ما به نطقت ، لكن أحلام لم تفهم فأُكملت لها ببالغ السرعة : لقد كنا الملكات يوما و ارتدين له الفستان الأبيض وأسرتنا الأحلام والأمنيات وظل هو يغدق علينا حتي توقف الضمير عن الوخز و العقل عن التفكُر فكانت الطامة الكبرى ، فأصبحنا جواريه ، دُمى لا حول لها ولا قوة ، فاحذري فخه.

اشتد خناق الكلمات في حلقها وتحشرج الصوت ومن أسفل قدميها خرجت أفعى التفت حولها ثم قامت بخنقها فقُتِلت ثم سحب جثمانها للأسفل ، وبقية الخادمات التزمن الصمت ونكسنَّ وجوههن أرضا و أحلام لم تعد تفهم ما الذي يجري حتى ظهر هو, يقف بنفس المكان الذي كانت تقف فيه خادمته منذ لحظة ثم عقب " ثرثارة غبية, أثارت غضبي في يوم كهذا فاستحقت سحقي "

ثم ابتسم لأحلام وهو يمد يده لها لترافقه ، ظل يغدقها بنظرات عينه فشعرت بالخدر وهو يسحبها حيث درجات السلم لينزلا للطابق السفلي.

" ما هذه الوسامة التي تأخذ العقل عند النظر لعينه " قالتها في نفسها وقد بدت مشدوهة وهي تنظر لطلته ، توقفا في وسط الردهة الواسعة المملوءة بجمع لا تعرف منه أحد لتجده يركع أمامها ممسكا في يده خاتما ماسيا يسيل العشق من كلماته وهو ينظمها : أحببتك وسأظل لكِ ، خُلقت من أجلك ، الحب و السعادة والمال والملذات وكل ما ستشتهيه نفسك هو من اليوم معك ، فقط أعيدي على أذني التعويذة قوليها لتُسري على نفسي.

علا هتاف الجمع من حولها والجميع يهتف " هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

" هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

توسط الخاتم اصبعها وساد الصمت ليعطي الفرصة لتقولها " هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك "

ـ أعيديها

ـ هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك

قبّل يدها فعلا التصفيق وبدأت الموسيقى لحوط خصرها ليراقصها وأشار للمجتمعين فرقصوا ، دقة لا حدود لها فالجميع يفعل مثلما يفعل وكأنه دربهم ، كانت تتابع بعيناها ما يحدث حولها بينما عيناه هو قررت أن تغلفها بنظرات كانت تتابع

كل ما تفعله حتى أنفاسها ، توقفت عيناها عن المتابعة وعادت بنظراتها لترى المحدق بها لتسأل : من أنت؟

بابتسامة أجاب : مبعوث القدر.

ـ وما اسمك؟

ـ أتعلمين؟ أنتِ أول امرأة تسألني ولكن لا عليك، ففي اللحظة التى ستريدينني ستجدينني أمام عينيك.

ضحكت بشيء من السخرية وأجابت : حقا ، لكنني لا أصدق.

غابت ابتسامته وترك يدها وتوقف عن الرقص ثم دار حولها حتى عاد ليقف أمامها ، أمسك بكف يدها ثم جذبها لصدره ثم همس في أذنها بتحدي : إذن فلنجرب.

قالها واختفى فنظرت حولها لتجد الجميع يتابع الرقص وهو ليس بينهم

"أين ذهب ؛ لاتدري "

فهرولت نحو باب الخروج ونادت ولكن على أطفالها : زياد رضوى أين أنتم؟ أجيبوني فأنا والدتكم.

شعرت بأنفاسه تتلاحق خلفها فالتفتت خائفة لتجده مكفهر الوجه عاقدا ذراعيه أمام صدره ينظر لوجهها حانقا ، لم تعبأ لِما رأت وعادت تنادي لعل أولادها يسمعوا : زياد رضوى أجيبوني ، أين أختفيتم؟

جذبها إليه غير عابئ بندائها وأحكم قبضته على خصرها و يدها لتجد نفسها بين يديه مرة أخرى يتوسطان الراقصين وقد عادوا للرقص ، كيف أعادها إلى الداخل في لمح البصر لم تسأل لكن زاد خوفها وشعرت بدموع في عينيها و هي تسأل :

أين أولادي؟

ـ أتعلمين؟ لا يوجد ما يثير جنوني بقدر استشعاري لرائحة الضمير أو استشعاري لكونك تملكين عقلا لايزال ينبض ببعض التفكير ، توقفي عن هذا وعودي إلى أمنياتك ، لقد اخترتِ السعادة ، ارتضيتِ أن أزيل من حياتك كل ما كان يشعركِ بالضجر و السأم و الضيق والآن تسألين عنهم و تشعرين بالقلق حيالهم ، كل من كنتِ تعرفين صاروا من الماضي ، لا تفكري فيهم توقفي عن القلق لأجلهم ، واستمتعي بهذا.

قالها وقد توقف عن الرقص ليشير بيده لكل ما هو حولها فاستغلت اللحظة و أفلتت نفسها لتجري منه نحو الخارج و هي تنادي بكل عزم : زياد رضوى حتى استوقفها ارتطامها به فحاولت أن تدفعه وتعاود الجري لكنه تشبث بها وقال لها والشرر يتطاير من عينيه : ألم أقل لك توقفي عن هذا ولا تثيري جنوني عاودت الكرة علها تستطيع الهرب لكنها فشلت فصرخت لعلهم يسمعونها ، فضحك منها ساخرا وتعالت الضحكات وهو ينظر لحالها ثم تركها لتكتشف أنها في منتصف دائرة مغلقة لن تستطع الهروب منها ولن يسمعها أحد.

"اصرخي يا عزيزتي إن كان هذا مريحا لك، ارفعي صوتك بالنداء و لكن ثقي أنه لاحياة لمن تنادي لأنني ببالغ البساطة قد سلبتها "

صدمها ماسمعت فسألت باكية : ما الذي فعلته بهم ؟

بابتسامة باردة ونظرات كاشفة تتطلع إلى عيناها أتتها إجابته : كان منزلك يثير ضجرك فاستبدلته لك بالقصر وكان زوجك يثير سخطك فاستبدلته لك بزوج أفضل وخلصتك منه ، لقد ارتضيتِ أن تضحي به و أنا وافقتك وكذلك أولادك كانوا يثيرون ضجرك وسخطتك و أنتِ تقارنينهم بكل أولاد من هم حولك وأنا استبدلتهم لك بتوأم ينبت في أحشائك مني ، ألا تستحق كل هذه النِعم أن أرى الشكر في عينيك عوضا عن ذلك الجزع ، أم أنكم دوما هكذا بنو البشر مهما أتاكم لا تشكرون ولاتنظرون إلا تحت القدم.

سقطت أرضا منهارة بعد ما علمت ، الآن كل شئ قد فُهِم : لم تكن وحدها الثمن بل هي وكل ما تملك (منزلها, زوجها, أولادها) وما التالى؟ لا تدري ، لم يكذب في شيء لقد قال إن حياتها ستنقلب رأسا على عقب وصدق ، وكل ما ظنته مبهرا أدركت حقيقته.

على ركبتيه جثا ليرفع وجهه وينظر إليها سائلا : لِمَ الندم على ما لا يستحق؟

ـ ما تظنه لا يستحق كان هو كل امتلك وكان هو الحياة بأسرها.

ـ أعيدي التعويذة بهدوء وسيكون كل شئ على ما يرام ، فقط عشر مرات وسيصيبك خدرها وعندها ستقدرين ما اكتسبتيه ، تيقني أن كل شيء معي سيكون مختلفا ، كثمر منضود من لذة وشغف ، كرريها ولا تنظري للخلف ، ردديها خلفي لا بل معي "هبركا دبركا أنا لك أنا لك ، هبركا دبركا أنا معك أنا معك" هيا عزيزتي هيا.

نظرت في عينه ببالغ الاستسلام ثم نطقت بعدها : هبركا دبركا أنا لن أكون لك ، هبركا دبركا أنا لن أكون معك.

سمعها فتطاير من عينيه الشرر بينما أخذت هي في تكرارها وقد ارتفع صوتها :

هبركا دبركا أنا لن أكون لك ، هبركا دبركا أنا لن أكون معك.

فصرخ : اصمتي

هبركا دبركا أنا لن أكون لك ، هبركا دبركا أنا لن أكون معك

أمسك بذراعيها وتعالت صرخاته بها : لا سبيل لعودة ما كان ، افهمي أنتِ من اخترتِ أن تكوني معي.

هبركا دبركا أنا لن أكون لك ، هبركا دبركا أنا لن أكون معك

ـ كفى ، فالأمر ليس مزح ، فكلنا سيحترق بلعناتها

هبركا دبركا أنا لن أكون لك ، هبركا دبركا أنا لن أكون معك

صرخات وصرخات وصرخات تتوالى ، نيران ونيران ونيران تحرق ما يقابلها ، عواصف وعواصف وعواصف تقتلع كل شيء من مكانه ، دفنت رأسها بين ذراعيها مقررة الاستسلام إنها النهاية لامناص ولكنها راضية

"البقاء لله "

سمعها منذ ساعة فقرر أن يحتسب حتى وجد من الاطباء و الممرضات ما لم يفهمه ، احتضن أطفاله وراقب في صمت فالسؤال المتناثر حوله " ما الذي حدث ؟" يبدو أن لا إجابة له.

"استفاقت ولكن كيف ذلك ، كيف ماتت ثم عادت للحياة أم أنها لم تَمُت "؟

التفت الطفلين لوالدهما ينظران للدموع في عينيه و يسألا : أبي ما الذي حدث لأمي ؟

بكى و لم يجب و ظل بمكانه بلا حراك حتى أتاه الطبيب ، وقف لدقائق أمامه صامتا ثم قال : لا يوجد عندي ما أشرحه لك فقدت وعيها ثم استعادته توقف قلبها لدقائق ثم عادت للحياة و أعتقد أنها باتت الآن بخير وهي في انتظاركم فتحت عينيها ببطء تنظر لهم وهم يحيطون سريرها ، هل عليها أن تشعر الآن بالأمان ، سؤال سيجاور قرينه "ما الذي حدث"؟ وكلاهما لا إجابة له ،

احتضنتهم واكتفت ولن تفكر فيما مضى ، ستتعافى ولاحقا ستبحث عن إجابات للأسئلة.

و بعد يومين جلست أمام حاسوبها صامتة تتابع صفحتها على الفيس بوك ومنشورات صديقتها متنهدة بين الشرود والأسى متذكرة آخر منشور كانت تريد كتابته عن شعورها بالملل فتنهدت بعمق ثم تمتمت : وآه من الملل.

ثم ضغطت على حروف لوحة المفاتيح لتنثر كلمات تعلمتها بعد درس فهمت جيدا ما احتوى, فكتبت:

" عن نعمة قد لايدركها كُثر ، عن نعمة لا تقدر بثمن..... إنها الملل ، عن تكرار أيامك كما هي دون خسارة ما تملك ، دون ابتلاء أو مرض ، دون جديد غير أن ما معك لايزال معك ، اللهم أدم عليّ وعلى بيتي نعمتك ، نعمة لم أكُن لأعلم بها ، أن تستمع بما لديك ، أن تستمع بذلك الملل "

نشرته واتجهت لغرفة أولادها لتدثرهم وعادت لسريرها لتنام متمتة "الحمد لله " بينما إحدى صديقاتها قرأت ما كتبته أحلام على صفحتها فمطت شفتيها في ضجر و هي تنظر لزوجها وأولادها وحالها ثم تمتمت في نفسها بأسى حاسدة : الجميع يشعر بالسعادة في حياته إلا أنا ، حتي أحلام يمتعها زوجها بكل شيء معه حتي الملل "حظوظ"



الموت ـــ غداً

استيقظت من نومها و لم تنظر للساعة ؛ فالوقت مهما كان لن يغير من الأمر شئ، اتجهت للمطبخ و حضرت الفطور أو اكتفت بصنع الشاي و إلى جواره أي شئ يسد رمق الجوع ، اتجهت لغرفة الجلوس و قامت بتشغيل التلفاز لمتابعة حلقة الإعادة لإحدي المسلسلات .

تقضم لقيمة ـــ ترشف من الفنجان ـــ تصطنع المتابعة ، لقد شاهدت الحلقة بالأمس و تعرف الأحداث جيدا بل ابتسمت ساخرة إذ أن القصة نفسها مُعادة، لم يعد هناك جديد لينتظر سواء بحياتها أو بمسلسل تتابعه .

انتهى المسلسل ، انتهى الشاي بل و لقيمات رغيفها ـــ ما الذي ينبغي أن تفعله؟ أجابت نفسها : لا شئ.

اتجهت للمطبخ ، فتحت الثلاجة باحثة عمّا ينقصها قالت ذلك بصوت عالى ، لن يجيبها أحد فتولت هي الأمر قائلة : لا شئ.
و رغم ذلك قررت أن تبدل ملابسها و تتجه إلى محل البقالة ، خطوة تفعلها تقريبا كل يوم ، تتجه إلى هناك ، تسير وسط الناس ، تسحب إحدي العربات و تتجول ، تسأل نفسها ما الذي أحتاج لشرائه و قبل أن تجيب عليها بـ " لا شيء " تبدأ بوضع بعض الحاجيات المكررة ثم تنصرف بها لمنزلها مقررة أن تعيد كرّة الصباح ، كوبا من الشاي و رغيف من الخبز يحوي أي شئ ثم إلى التلفاز ، مسلسل اخر مُعاد لا جديد فيه سوى الشخوص و الأسماء .
و ببطء ينسدل الليل معلنا أن اليوم قد أوشك علي الانتهاء و تنظر للنوافذ و تغلق التلفاز و تتجه لسريرها ، تدفن رأسها بالوسادة ، تبدأ الذكريات بالطفو ، تضع وسادة أخري فوقها لعل ما برأسها يُدسّ ، فلا حاجة لها بالماضي و لا جديد باليوم ، و ما تنتظره بالغد ــــــــــــــــــــــ " لا شيء "
و لكنها لم تنم ؛ قامت من مكانها و قد تعلل صدرها و ملأه الضيق من خمس سنوات تتصنع فيها أنها على قيد الحياة ، اختلطت دموعها بأنفاس متعبة و شعرت أن روحها تصعد لبارئها, إذن هو الموت المنتظر ، أهو الآن و لكن لِمَ ؟ !

تهمل يا عزيزي فأنا لست جاهزة ، أعِرني بعض الوقت لعلِّي أعمل صالحا ، بل خذني من هنا فالوحدة تنهش فيّ كل مساء تريد أن تفترسني ، انتظرت و انتظرت و لكنه لم يأتي ، أحتى الموتُ ضنت به الحياة -- لكن لِمَ ؟ !
فتحت عينيها بالصباح لتجد نفسها لازالت علي قيد الحياة أو كما اعتادت أن تصطنع ، لكنها لن تعيد ما كان بالأمس ، لم تسأل نفسها ماذا ستفعل و لن تنتظر اجابة بلا هوية كل ما قالته بصوت مسموع هو : سأفعل شيء أي شيء بدلت ملابسها و خرجت تطوف الشوارع بلا مأرب ، غايتها البحث و سبيلها التيه ، ظلت على حالها ، لم تعرف كم مضى من وقت حتى شعرت بالوهن فقررت العودة .

عند مدخل منزلها و قد قررت أن تنتظر المصعد ، انفرج باب لتخرج منه عدة نسوة ، خروجهن استوقفها فنظرت ، ابتسمت أحدهن و ألقت السلام و رحلت .

أتى المصعد ، لكنها التفتت عنه ناظرة للباب الذي لم يوصد بعد ، اتجهت و مدت يدها لتوسع فتحته برفق ، فأطلت صورة فتاة تجلس إلى جوار مكتب ، استدارت لها لتسألها عمّا تريد ، تحرجت و سألت : أهذا ------

و قبل أن تجيب ابتسمت الفتاة و ردت : دار اليسر لتحفيظ القرآن ، بم أفيدك ؟

شعرت بالخجل و لم تعرف بم ترد و بعد لحظة سألت : أيمكنني المجيء إلى هنا ؟

ـ بالطبع سيدتي و على الرحب و السعة ، سنسعد بقدومك إن قررتِ ذلك

تنهدت بكثير من الراحة قائلة : أنا بالفعل أريد ذلك و لكن ما الذي ينبغي أن أفعل ؟

فتحت الفتاة أحد الأدراج و أخرجت ورقة و أشارت لها قائلة : عليكِ أن تملئي هذا ، إنه طلب التحاق بالدار و حددي لنا ما الذي تحفظينه من القرآن و سنحدد لك أي حلقة يمكنك الالتحاق بها.

شعرت ببالغ التوتر و هي تجلس إلى جوار المكتب مقررة الإجابة على ما حواه الطلب ، أسئلة لم يأت بذهنها أن تجيبها سلفا.

ـ هل سبق لكِ و تعلمتي التجويد ؟

ـ لا

ـ هل حفظتِ شيئا من القرآن ؟

ـ لا

ـ هل باستطاعك أن تقرئيه بصورة صحيحة ؟

ـ لا

زادت أجاباتها شعورها بالضيق و سلمت الورقة معقبة : كل إجاباتي بـ " لا " فما العمل؟
ابتسمت و أجابت : لا شيء.
خفق قلبها للكلمة و عندها أكملت الفتاة : ستلتحقين بحلقة للمبتدئين و يوما ما ستتبدل كل الإجابات لـ " نعم ".
قامت و قد شعرت بالراحة و قبل المغادرة استوقفتها الفتاة هاتفة : و لكنكِ لم تكتبي اسمك !
عادت مبتسمة و أمسكت بالورقة و خطته و قبل أن تنصرف قرأته الفتاة جيدا " رجاء رضا " فعقبت : لعل الله يجعل لك من اسمك نصيبا.
فتوقفت عن السير و جحظت عيناها إنه اسمها التفتت لتسأل الفتاة و أنتِ؟
قالت : هدى.
ـ أتعلمين يا هدى إنها المرة الأولي التي ألاحظ فيها اسمي ، فشكرا لكِ
عادت للمصعد و قررت الصعود وهي تتمتم في نفسها : ليتني هجوته مبكرا " رجاء رضا".
ظل الاسم يتردد بالقاعة للمرة الثالثة " رجاء رضا " ، نبهتها هدى قائلة : فيم كنتِ شاردة ! إنهم ينادون اسمك لتصعدي منصة التكريم.
تنهدت و قالت : عذرا يا هدي ، لم انتبه.

ثم قامت و صعدت المنصة متجهة لمعلمتها ، احتضنتها مهنئة ثم استلمت شهادة تقدير تشير إلى أنها باتت من حملة القرآن الكريم ، استدارت ناظرة للحاضرين فعلا التصفيق لها.

ابتسم طفل صغير ثم هرول باتجاهها ، نزلت عن المنصة و احتضنته ، استوقفتها هدى سائلة : ومن يكون الصغير يا تُرى ؟ !

أجابتها : إنه أصغر أحفادي ، فأبنائي الثلاثة اليوم هنا.

عقبت هدى مازحة : و لكنك جدة صغيرة.

ضحكت رجاء و ردت : إنني هكذا اليوم ، لكن آه لو كنتِ عرفتني قبل ثلاث سنوات من اليوم أو حتى قبلها، حين مات زوجي ظننت أن لذة الحياة باتت فاكهة محرمة.

تنهدت تنهيدة طويلة ثم أتبعت : لقد كنت أعتقد أن امرأة بالعقد السابع من عمرها ، لا تستطيع أن تفعل في الحياة شيئا سوى انتظار الموت --- غدا

)5(

أنا تنـموي

(من وحي إحدي ندوات التنمية البشرية)

كعادتها استيقظت على عجلة من أمرها و دون تفكير أو شعور قامت بتكرار برنامجها الصباحي ، الصلاة ــ الفطور ـ و تبديل ملابسها و الخروج ، يومها مشحون بما لديها أو هي قررت أن تجعله هكذا رافعة شعار لا وقت للتفكير أو تحديدا التركيز ، فثمة شيء بداخلها فرض عليها ما باتت تفعله إلا أن الشئ ذاته سيغير مسار حياتها ، فعندما نظرت لساعة يدها و هي تتجه للعمل لم تعلم أن لديها موعدا مع القدر!!!!

عند الواحدة و الربع تقريبا استأذنت لتتجه للدورة التدريبية التي التحقت بها ، وصلت و تنهدت و صعدت الدرج حيث المكان ـــــــ ابني نفسك ـــــ إنه اسمه و حلمها

سألت بخفوت تلك الجالسة بمكتبها تتابع الحاضرين : هل أتى المدرب ؟

فأجابتها : نعم

فدخلت على عجلة من أمرها، بوجهها الباسم للحياة و قد رأت أصدقاءها و جاورتهم الجلوس ، زفرت لشعورها بالراحة أنها أخيرا هنا و بدأت الاستماع ناظرة لبقية الحاضرين و قد فرض كلام مدربهم علي آذانهم السمع و علي عقولهم النظر .

أنا تموي

أمنية من منهم لم يتمني يوما أن تكون غايته ، أن يرى نفسه و قد سما ، ركل بقدمه عجز ما امتلكه من وهن ، ضاربا عرض الحائط بأفكار عفا عليها الزمن ، تغلغلت من أمتنا كعبادة وثن ، و عندما لاح التغير في الأفق كان الهتاف خانعا "هذا ما ألفينا عليه آباءنا"

كان مرور اليوم سلسا في شرح المادة ، لا يقطعه إلا المزاح تارة و الاستفسار من أحدهم تارة أخري ، فكرة يعقبها شرح ثم تمرين ، ثم تعاد الكرة

و سؤال عن إنجازاتك و إسهاماتك و من تكن، أركان الحياة التي اعتدنا أن نتظاهر بعيشها فيأتي السؤال أحقا نعِيشها ؟؟؟

و في خضم الأسئلة لم تكن تدري أنه حان دورها ، لتبدأ من اليوم في لعب البطولة لقصة حياتها ، نظرة من المدرب كأنه يبحث بصدق عن أحدهم ، لقد قرر

أن ينتقي فكان قدرها أن تجيب بتلقائية على فخ سؤاله

ـ هل هناك من شعر بالأسى علي فقدان أحدهم ؟

ـ نعم ، أنا

ـ حسنا ، تعالي إلى هنا.

اتجهت لتقف حيث أشار ، فجاء سؤاله أن احكي لنا من يكون و كيف كان فراقكم ؟؟

تنهدت و قد خفق قلبها و شعرت أن عيناها قد تخوناها فتذرف الدموع ، فأمرتهما و قدمَاها أن تتظاهرا بالقوة ، فلقد تعلمت هنا منذ قليل أنه لا مكان للضعيف لا وسط الحاضرين و لا غيرهم ، لكن هل سيجدي التظاهر أمام من فَهم ، لم تكن تدري لكنها تظاهرت ، فتوردت وجنتيها بابتسامة عميقة أظهرت حجم الألم و ردت بعدما أرهقها شريط الذكريات : إنه أبي

تنهيدة قوية ثم أكملت : كنا بالعيد و ما كنت أظن أن بنهايته سيرحل بغتةً ، من دون مقدمات باليوم الخامس مرض و انتقل للمشفى و كنت أقرب شخص إليه ، كنت أخفف على نفسي وأقول إن الأمر سيمضي و أنه بخير ، لكن جاءتني الرياح بما لم أشتهي ، و استحال الوضع من سيئ لأسوأ ، حتي حانت لحظة وفاته ، كنت معه بالفجر و شعرت أنها المرة الأخيرة و تماسكت قدر المستطاع حيث كان ينبغي عليّ المغادرة لعملي ، و بمجرد وصولي جاءني الخبر و طُلب مني العودة

، طوال الطريق لم أكن أرى أمامي و كأن عينايا قد خلقت لتبكي ، و من بعد وفاته وجدت أنني و الانهيار قد صرنا رفقة ، بمرور الأيام تماسكت فظننت حينها أني نسيت ، لكنني في الحقيقة فقط تناسيت لأنه إلى جواري ، يعيش معي في غرفتي و أحلامي و قد أقنعت عقلي أنه لم يمت بل معي ، يتظاهر هو بالموت بقدر تظاهري أنا بالحياة.

ساد الصمت فقال لها : أريدك أن تغمضي عينك و تتخيلين والدك ثم تقولي أمام الجميع أنه قد مات.

صمتت منكرة فأعاد : قولي أمامنا إن والدك قد مات.

تنهدت مقررة أن تكمل التظاهر بالتماسك و قد أغمضت عيناها و آثرت الصمت و لكنه أصر هاتفا : قولي مات أبي ،قولي

أزاح بكلمته ستار التظاهر فانسابت دموع عيناها و عادت للشعور ذاته، ما شعرت به يوم مماته ، كانت تظنه تاه في خضم الحياة ، تغافلت عن الجرح ظناً منها أنه اندمل ، فإذا به متقيح بمرور الزمن ، بكت و بكت و بكت و لم يعد التظاهر كعادته مجديا

عاد الصمت

فسألها : ما الذي يخيفك منذ أن مات والدك ، برحيله ما المفقود يا ثُري

ـ الأمان

قالتها بعفوية فأكمل : مم تخافين؟

ـ الوحدة

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري ، رغم أن حولي كثير ، أصدقائي و أهلي و أخواتي ، لكني كثيرا ما خشيت الوحدة ، أخشى أن تمر السنوات فينفضوا

ـ أنتِ هنا اليوم ، ما الذي باستطاعتك فعله حتي لا يأتي ما يُخيفك؟

تنهدت و قد هدأت و ردت : الكثير ، لا أدري و لكن الكثير

تنهد هو ثم قال : إذن الآن إعلي بالخيال ، إنك أمامنا و قد مر عشرين عام ، أنتِ هنا لتسردي علينا قصة نجاحك ، أنتِ لستِ وحيدة و لا حزينة ، بل سعيدة و قد اجتزتِ محنتك بل و أعَنتِ من حولك على إبتلاءاتهم فما الذي ستقولينه لمن يمرون بما مررتي به ؟

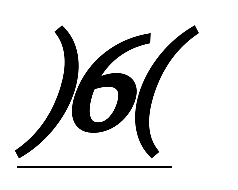
قبل أن تبدأ استوقفها قائلا : انتظري ، أريدك أن تتنفسي بعمق و أن تشعري بالشهيق قد امتد لعقلك بل و ملأ بأكسجينه كل خلية منكِ ، أغمضي عينك ثم تخيلي الأمر ثم افتحيها و ابتسمي و احكي لنا كيف مرت السنين

فعلت ما طُلب منها فشعرت ببالغ الهدوء في نفسها و ابتسمت بصدق ثم قالت : هل تتذكروني ؟؟؟

ـ لقد كنت هنا منذ عشرين عام ، وقفت أمامكم و تحدثت عن جروحي و مخاوفي

و ما إن عدت يومها لبيتي حتي اتخذت قراري بمواجهتها ، لململت شتات نفسي و أعددت عُدتي و سألتني إن كنتُ بصدق أخشى الغد فما الذي بيدي لليوم ؟
أمسكت ورقة و قلم و كتبت أفكاري و حددت خطتي ، ثم عشت حلمي حقيقة ، لم أنجح و حسب على الصعيد المهني بل أنا اليوم أملك أكبر دار للأيتام في الشرق الأوسط و جئت اليوم هنا ليس فقط من أجل التكريم ، بل من أجل أن أحكي كيف بات خيالى واقعا ، إنني لم أعد وحيدة كما كنت أخشى لأن كياني امتلأ بحلمي، شعار وضعته لحياتي عنوان "كيف أسعد نفسي و من حولي"
هنا علا التصفيق لحلم ولد من رحم اليأس في قمة لحظة ضعف من حمله ، هنا قال مدربهم : أحيانا ، تكون طاقتنا السلبية مفيدة إن علمتنا كيف نبدع و لكن لا ينبغي لنا أن نستسلم لها و ندور في فَلَكها ، بل ابحث دائما عن فحوى ما بين السطور في كل شيء و هكذا هي الحياة.
ثم نظر لها و قال : و الآن أمامك عشرون عاما من الأمل سننتظر فيها معكِ يوم تعلنين لنا ، أن حلمك صار واقعا.
ثم استوقفها قبل دخولها و قال و لنعد لوالدك : ماذا لو تذكرتيه؟
ابتسمت و قال : سأدعو له و سأجعل نجاحي صدقته الجارية.
ـ هو بمكان أفضل و هو الآن فرح بكِ و فخور أنك ابنته و أن أجر عملك صدقة في موازين أعماله ، أليس شيء يستحق الفرح.

أجابت بابتسامة واسعة : نعم.
هنا الجميع تأثر و ليست هي وحدها ، الكل كتب بورقة تخصه حلمه ، الكل أدرك أن الأمل لا يفنى لكنه قد يستحدث من عدم.
فشكرا لكل من علمني أن أستصغر الصعود لقمة جبل حتى لو كان واقعا ، لا أراه شاهقا و قد رُسِم أمامي على الورق.



صندوق صدف

انزوى كل واحد منهم بغرفة ، يتابعان بعناد بالغ لحظة تفريغ منزلهم مما كان يحويه، كل واحد منهم يريد أن يثبت أنه غير عابئ بما تحمله اللحظة من ألم ، لذا سيظهرا بالغ الكبرياء أمام جميع من يعرفهم بل و أمام أنفسهم .

اتجه هو ليجلس على إحدي المقاعد المتبقية فاستوقفه أحد العمال سائلا : سيدي ، إننا على وشك الانتهاء ، فهل هناك أغراض أخرى باستثناء مقعدك

قام عنه و رد : لا ، خذه الآن و اتجه بالسيارة حيث الوجهة التي اتفقنا عليها

أومأ العامل برأسه و حمل المقعد و انصرف .

بدى المنزل خاويا على عروشه إلا من صوت قرع أقدامها و هي تخرج من إحدى الغرف و بدورها تتأكد أنهم لم ينسوا شيئا ، بل لم تنسَ شيئا مما يخصها .

انطلقت السيارات بأثاث منزلهم بعدما اقتسموه فأصبح لكل سيارة اتجاهها ، إذن انتهى كل شئ، و لم يبقَ إلا بعض الألبومات و الصور و أشياء أخرى جلست الزوجة أرضا بإحدى الغرف مقررة تفنيدها.

شيئا من فضول دفعه ليلقي عليها النظرة الأخيرة قبل رحيله ، توجه إلى الغرفة التي كانت بها، رآها مستغرقة فيما تفعل فسأل : هل لازال أمامك الكثير؟

ظلت مستغرقة في النظر للصور و ردت : لا عليك ، سأجمع ما تبقى من أشياء في أكياس, دقائق وأرحل.

اقترب منها و جلس مجاوراً لها وسحب صندوقا صغيرا كان يعلم ما يحويه مسبقا وقام بفتحه ، نظرة أخيرة على عدة صدفات يذكُر جيدا أنه من جمعها بنفسه ووردة لاتزال محتفظة بشذاها رغم جفاف أوراقها وكروت معايدة وقصاصات ورق كتبها يوما ما بخط يده لتحكي بدورها عما كان بقلبه ، صندوق راقي من الصَدف كان يعني الكثير يومَ كان هدية ، يومَ قال لها وهو يعطيها إياه "سيكون هذا بمثابة الشاهد علينا ، سنجمع فيه ذكرياتنا ومني وعد أننا سنتجاور بالذكرى الخمسين لزواجنا وقد ملأناه بكل تذكار يستحق فنقوم بتفنيده ونحن نتجاذب أطراف السمر ونضحك ، عندها سألمس بيدي تجاعيد يديك وخصلات شعرك الأبيض وقد بقيت معك على عهدي"

تبادلا النظر لبعضهم البعض ليدركا أن اللحظة الحقيقة هي الآن وليست تلك التي كانت على الشاطئ يوم أعطاها هديته وأغلظ في عهوده ، لكن كليهما بعد برهة تحاشى النظر وعاد لينزوي بعينه بعيدا لأن طعم المعاتبة بات علقما

عندها قرر المغادرة فقام من مكانه متصلبا بكبريائه وواعظا : اغلقي الإضاءة و تأكدي من كل شيء قبل أن تغادري فالشقة سيتسلمها مساءً المُشتري

قالها ورحل, فالتفتت تنظر إليه وهو يبتعد وتتلاشى صورته شيئا فشيئاً حتى اختفى, وهكذا كل شئ بينهم انتهي ....

في الصباح كان المهندس على مكتبه يطالع زملاءه والشكاوى المتناثرة من أفواههم عن حال العمل أو حالهم وزوجاتهم, لم يخبر أحدا أنه طلق رفيقته , احتفظ بالأمر في نفسه لأنه يكره المواساة ؛ لا قيمة للمآزرة عنده ولو بدت حقيقية فما قيمة أن يستشعر جراحك وآلامك الشخص الخطأ ، التظاهر بأن كل شيء على ما يرام؛ له دوما ما يميزه حين تنغمس في تزَاحم أوراق العمل علها تتنافس مع تزاحُم ما يئن بعقلك ، لكن هيهات للعقل أن يتوقف عن الأسئلة وعلى رأسها سؤال ألمعي "ما الذي أتي بمشهد النهاية والرواية لاتزال بالمنتصف؟؟؟"
ضجيج استحال صمتا حتى قطعه صريف قلمه وهو يخط دون عمد في إحدى الأوراق ليحيل لونها للأزرق من كثرة الشخبطة .

أما هي فكانت شاردة وفي حزنها هائمة حتى اقتطعها سؤال طُرِح عليها في شغف " هل عرفتِ إن كانت فتاة أم صبي "؟

قالتها السيدة التي كانت تتمدد إلى جوارها تشاهد معها شاشة السونار لتطمئن على حال جنينها وتابعه صوت زوجها و هو يسأل : هل من شئ أزعجك بحمل زوجتي؟
أرغمها حوارهم على استئناف عملها فتظاهرت بأنها على ما يرام وشرحت لهم وضع جنينهم وهي تتابع الفرحة المرسومة في أعينهم ثم عقبت بألا يتعجلوا فنوع الجنين لا يظهر مبكرا ، ثم عادت لمكتبها تكتب الأدوية اللازمة وتكرر عليها النصائح وما ينبغي عليهم فعله ثم ابتسمت لتودعهم قائلة : إن شاء الله عن قريب يتم الله حملك على خير.
فبادلوها الابتسامة وكان ردهم : ولك بالمثل.
استوقفها قولهم, وبعد خروجهم تسنت لها الفرصة إذ باتت وحدها فبكت ، لتُخرج ما في جعبتها من أسى ، طوال ما مضى من وقت وإجراءات آثرت التظاهر بالقوة وأنها لن تبالي بما أصاب زواجها ، فامرأة مثلها اعتادت النجاح لا تعترف بالفشل حتى لو كان موضع جلوسها على عتبته.
هو حازم لا في طباعه وقرارته فحسب بل هو اسمه ، وهي عُلا لا تعرف التنازل أو المقايضة أو القبول بحلول وسط ؛ اثنين جمعهم الحب و لكن فرقتهم الأنا.

"البدايات وآه منها وليتها تدوم"
رائعة مختلفة مبهرة وأحيانا استثنائية تشعرك وأنت تعايشها أنك قد ملكت الدنيا بأسرها وكان هذا هو شعور كل منهما ، يوم تعرفا ظنا أنهما خلقا لأجل بعضهما ، خلقا ليتكاملا ....

" الأستاذة حنان طه "
علا النداء بالاسم فهمت صاحبته من مكانها لتتجه حيث غرفة الكشف إذ حان دورها طرقت الباب و دخلت بينما اتجه من يرافقها إلى السكرتيرة سائلا : يوجد إعلان على باب العيادة مكتوب عليه أن الدكتور إبراهيم مسافر فمن الذي يتابع العمل هنا في عيادته؟
ـ ابنته
جاءته الإجابة لتشعره بالقلق فزفر ثم توجه للدخول بعدما طرق الباب ليجد أمامه طبيبة شابة فيزيد ضيقه و هو يظن بها الفشل ، التفتت له الطبيبة وقالت وهي تتابع شاشة السونار وتشاهد الجنين : بإمكانك أن تأتي وتنظر لترى الجنين عن كثب
دون النظر إليها نظر لرفيقته وقال : أرى أن ننتظر حتي يعود الدكتور إبراهيم من سفره وهذا سيكون الافضل لك

التفتت علا مستغربة لتلك الطريقة التي يتكلم بها ثم نظرت لحنان بعدما نظرت له وعقبت : أُقدر قلق زوجك عليك ولكن هذا عملي كما هو عمل والدي وأنا أتقنه جيدا
شعرت حنان بالخجل وبادرت بالاعتذار ثم عقبت : دكتورة علا رجاءً لا تتضايقي إنه أخي وهو دائمًا هكذا يشعر بالقلق حيال أي مهنة يجد صاحبتها امرأة
.
أخوها هو إذن ، اتجهت ببصرها له و نظرت بحدة ثم جاء ردها : لا عليك ، فكُثر مثله.
أنهت علا جملتها و نزعت عن يدها القفاز و عادت لمكتبها لمباشرة الحالة ، بينما هندمت حنان هيأتها واتجهت لتجلس بالمقعد المقابل لمكتبها وقد نظرت لشقيقها ببالغ الضيق ،كان لايزال بمكانه خلف الباب منذ دخل ، لم تتأثر علا بما قاله بل أكملت عملها و كتبت الأدوية اللازمة لحنان و مدت يدها بالروشتة وعقبت : إننا على أعتاب الولادة والأمور جيدة جدا، سأنتظرك الأسبوع القادم ثم بعدها سنحدد موعد الولادة ، عليك الراحة الآن ومتابعة أدويتك حتى يحين الموعد ونرى مولودك بخير وعافية ، هل من أسئلة؟
"هل سيكون الدكتور إبراهيم موجودا قبل ميعاد الولادة "؟

جاءها السؤال من حازم فرفعت علا وجهها وردت بحدة : لا ، لن يعود قبل شهر من الآن وإذا كنت تريد منها أن تتابع ولادتها مع طبيب آخر ، فلكم ذلك

زفرت حنان وردت : لا عليكِ ، سآتي في موعدنا الأسبوع القادم و سنحدد سويا موعد الولادة.

قالتها وقامت من مكانها تصافح علا فبادلتها المصافحة وردت : إذن أنا في انتظارك.

خرجت وتبعها حازم و هو يشعر ببالغ الضيق من إحراج أخته له و بمجرد أن ركبا سيارته صاحت فيه : ما الذي فعلته؟ ألا تظن أن طريقتك كانت مهينة لها؟

زفر ورد : كيف لك أن تثقي بها؟ لازالت صغيرة وعديمة خبرة و من الممكن ألا تكترث لحياتك، أختي إنها امرأة.

- من قال لك إنها المرة الأولى ، إنها الطبيبة التي أجرت لي الولادة السابقة و تعمل مع والدها، حازم لِمَ تعمدت التقليل من شأنها وإحراجها؟

- لم أقصد.

- بل قصدت و أنا لن أعرفك اليوم ، بل سأكرر كلماتك التي اعتدت تكرارها دوما، النساء لا يجدن من الحياة شيئا سوى الرومانسية ، النساء لا يفكرن إلا بالتبرج و التزين من أجل الرجال و حسب ، النساء ــــــــــــ

- كفى

قاطعها و أدار السيارة لإيصالها لمنزلها و في طريقه فكر، أليست هذه هي الحقيقة ، الفئة الأكبر من الفتيات لايشغلهن إلا الترهات وربما هذا هو السر الأكبر خلف عزوفه عن الزواج ، لأنه أبدا لن يجد من تفرض عليه أن يحترم عقلها قبل النظر لمفاتن جسدها .

وبضعة أيام مرت تعالى فيها الشغف لانتظار مولود جديد سيطل على عائلته ، أتت حنان لترافقهم السكن حتى موعد ولادتها حتى لا تكن وحدها لدواعي سفر زوجها ، كان المتوقع أن تسير الأمور في دروب مستقرة لكن القدر خالف توقعاتهم إذا أنه أسبوعها الأخير بالشهر الثامن وعلى غير المتوقع صدمهم صراخها في الحادية عشر مساءً لتخبرهم أنها تستشعر آلام الوضع فيملأهم الفزع
"ولادة مبكرة "
"حالة خطرة "
ما الذي عليهم فعله؟ ما كان على والدتها سوى الاتصال بطبيبتها و التي هتفت فيهم أن يحضروها على الفور إلى المشفى.
وخلال أقل من ساعة كان حازم هو من يهتف في علا صارخا : لو أن الأمر صعب عليك فلا داعي للمخاطرة ، إنها حياة أختي وطفلها و بإمكاني إيجاد طبيب أفضل.

تمالكت أعصابها وكظمت غيظها وردت : كل دقيقة ننتظرها يزداد الخطر عليها ، أرجوك دعني أنهي عملي و أعدك أن تطمئن عليها.
تركته و اتجهت هي لغرفة العمليات بينما ظل هو يمزقه خوفه ، لديه من اليقين ما يكفيه ليهيئ نفسه أنه سيسمع ما يحزنه حتى سمع صوت صراخ المولود فأيقن بعد مرور أكثر من ساعة أنها ولدت وقبل أن يفرح ، حدق بباب غرفة العمليات وقد تذكر المشهد الأكثر شهرة بالأفلام العربية حين يخرج الطبيب ليتحدث ببالغ الدراما أنه استنفذ ما بوسعه لإنقاذ المريض لكنه لم يفلح و انفتح الباب وخرجت علا ويا للعجب لقد كانت مبتسمة بل وبشرت والدته ومازحتها كي تسرع بإحضار ملابس الطفل المتعجل وطمأنتها على ابنتها و اتجهت بعدها حيث غرفة الأطباء لتبدل ملابسها وتحتسي فنجانا من القهوة فلايزال أمامها بعض الوقت حتى تتأكد من إفاقة الأم ومولودها و مع الرشفة الثانية طرق باب الغرفة فأجابت : ادخل لتجد والدة حنان هي من تستأذن لتدخل : هل بإمكاني التحدث إليك؟
ابتسمت وهي تشير لها بالدخول وأجابت : بالطبع
جلست و ردت : جئت للشكر و الاعتذار
وقبل أن تعقب علا أكملت : أعلم أن طريقة حازم هكذا دوما ، أتعلمين؟ إنه كمولود حنان لكنه ابن سبعة أشهر ودائمًا متعجل ، فقط أريد ألا تضايقك طريقته و أشكرك كونك أتيتِ في هذا الوقت المتأخر .

ـ لا عليك إنه عملي

استفاقت حنان ليتأكدوا أن اللحظات الحرجة قد مرت وحلت محلها الفرحة ، طرقت علا باب غرفتها لتطمئن عليها وتطمئنها على مولودها الذي سيظل بحضانة الأطفال كإجراء وقائي حتى يطمئنوا عليه والتفتت بعدها لترحل وما إن خرجت حتى وجدت من يستوقفها ليسأل بحزم : هل أنتِ بحاجة لمن يوصلكِ لمنزلك؟ التفتت باستغراب لتراه أمامها عاقدا ذراعيه أمام صدره ثم اقترب منها وسألها :
بإمكاني إيصالك إذا ــــــــــــ
بحدة قاطعته وعقبت : معي سيارتي
قالتها ودون أن تعبأ به اتجهت للخروج من المشفى و أدارت سيارتها و رحلت حتى وصلت لمنزلها لتجد في مرآة سيارتها الأمامية بينما تركنها انعكاسا لصورة سيارة تتبعها ، شعرت بالخوف و لكنها قررت أن تتظاهر بالقوة حتي انتهت من وضع سيارتها و صعدت مسرعة للبناية متفادية مخاوفها ، انتابها بعض الفضول فالتفتت لترى شيئا من ملامحه متسائلة " أكان هو ذلك المتعجل "؟
في سيارته ابتسم بعدما اطمأن أنها عادت لبيتها دون أن تتأذى وللمشفى عاد وهو يفكر في المواقف البسيطة التي جمعتهما

ارتكن إلى أحد المقاعد ليكمل المتبقي من ليلته بعدما نامت أخته ووالدته بالغرفة
حاول النوم ولكنه لم يستطع فأرجع ذلك لكونه غير مرتاح بنومته ، زفر و حاول
أن ينام لكن يبدو أن هذا لن يحدث
" شارد مبتسم ومن آن لآخر يتنهد " نفى ما يستشعره عن نفسه فمثله لايمر أبدا
بحالة كهذه ، أمر عقله بالنوم فأبى فصاح في نفسه
"ما هذه الورطة ، حازم رجاءً استفق "
فتساءلت نفسه " أتريدني أن أستفيق أم أنام , رجاءً حدد"
فأدرك أن زمام الأمور التي يدعي دوما إحكام سيطرته عليها قد انفلت ، وأنه
الآن في قمة التشتت لكنه غير عابث أو واجم بل يبتسم دون سبب كأبله ،
تشتعل الأسئلة تارة ثم تصمت ومحاورها وإن تنوعت فكرة
" تُرى من تكون علا هذه وما هي حكايتها "

آدم هو آدم دائمًا وأبدا ، لو أراد شيئًا لايستطيع أحد أن يوقفه وهكذا كان حازم
كبقية بني جلدته أراد أن يعرف عنها كل شيء و نجح ،في خلال أسبوع واحد كان
يعلم عنها كل ما تطلع لمعرفته وربما أكثر ولم يبقى إلا أن يعود والدها وفرصة,

فرصة تقربه ليعتذر عن فظاظته لإثبات بعضا من حسن النية, و أتته الفرصة على طبق من فضة حين حان موعد ذهاب أخته لعيادتها وقد أصر على اصطحابها ولأول مرة تلاحظ أخته توتره وتكرار سؤاله لسكرتيرتها عن موعد دخولهم.

"اهدأ"

لم تكن كلمة نابعة من نفسه وحسب بل رددتها أخته فشعر أنه على عتبة فضح أمره فقرر التظاهر بالهدوء

وحان دورهم ودخلوا ، فكر عندها أن يبادر باعتذار لكنها انهمكت بالحديث مع أخته بينما اتجها لسرير المرضى لتبدل غيار جرحها سأل بعفوية : متى سيعود دكتور إبراهيم من سفره؟

شعرت علا ببالغ الغيظ والتفتت لترد بحدة : لا تخشى على أختك لقد سبق و تعلمت في كليتي و علي يد والدي كيفية فك خيط الولادة القيصرية وتنظيف الجُرح وتغيير ضمادته.

قالتها وعادت تباشر حنان ليستشعر أن فرصته قد تبخرت بالكلية واعتذاره الآن لم يعد يكفي لقد فهمت أنه يسأل ليسخر منها أو يحقرها فأظهرت مخالبها وردت.

سكن بمكانه حتى انتهت وعادت علا لمكتبها بينما هندمت أخته ملابسها وأنهت زيارتها وكادت تخرج إلا أن حازم ظل بمكانه دون حركة ، نادته حنان فلم يجبها بل التفت لعلا ووقف بمكانه و قال : هذه المرة لم أقصد الإهانة بل أردت أن أعتذر

عن فظاظتي بالمرات السابقة ، وأردت أن أعرف بصدق موعد رجوع والدك لأمر هام عندي.

بهدوء أجابت : سيعود في الخامس من الشهر القادم

ـ شكرا

قالها والتفت ليرحل فاستوقفته : فيم تريد والدي؟

توقف واستدار و رد بثقة : أخبريه أنني سأحضر في اليوم التالى لعودته في الثامنة مساءً ووالدتي.

قالها مبتسما بينما أمارات الدهشة تملأ وجهها فتساءلت بحيرة : ولماذا؟

مبتسما أجاب : سأتقدم لخطبتك و أرجو أن تفكري في الأمر دون تسرع ومهما كانت الإجابة لك مني بالغ احترامي ...

بالجروح الغائرة انسياب الدموع يحرق لا يريح ، والتفكير هو استدعاء للذكريات لا ترتيب للأوراق ، والأسى كل الأسى أن تصدق أقصوصة ثم تحتال لأكذوبة ، تنهدت وهي تنظر لأمواج البحر الثائرة أمام عينيها وهي تضرب برفق في أقدامها التي مددتها فوق الرمال بينما وضعت صندوق الصدف أمامها ، تتطلع إليه فيزداد بكاؤها.

صار كل شيء بينهما كالروايات إلا النهاية ، إذ أنها في البداية رأته فارسها الذي قرر أن يخطفها, وفعلها, واحترمت قراره ، خطفها بجنونه بحبه بأفعاله بل وعشقه ورؤيته لها كأميرة بل صاحبة الجلالة ، شعرت أنها ملكته كلما قرأت انبهاره بها في عيونه ، أحبت ذلك وزاد حبها لكونه دائما ينفي اعترافه بالحب رغم عطائه ، يغدق ثم يخبرها أنه لم يؤمن يوما بحب القصص والحكايا هو فقط يقدم ما يرى أنه حقها لهذا كان لنكهة حبه طعمها الخاص ، حنان وعطاء مغلف بالكبرياء كحصانة "الحب ضعف "

والرجل الضعيف بلا قيمة ، كلمات طالما سمعتها ولم تستوقفها يوما ولم تدرك أنها رغم بساطتها إلا أنها قناعات كتبت لحكايتهم النهاية .

ومرة أخري فتحته ونظرت لصدفاته ، وضعت الصندوق جانبا بعدما أمسكت بالصدفات في يدها و قد قامت من مكانها و اتجهت لتقف وسط أمواج البحر ، رمت بواحدة لعل الامواج تقذفها بعيدا فترحل معاها الذكريات لكن الصدفة من وسط الامواج عادت ، عادت لتكون أمامها لا يفصلها عن التقاطها إلا إنحناءة وما كانت لتفعلها بل سئلقي بالبقية ليلحقوا بها علهم يرحلوا للأبد ومعهم كل الحكاية.

و انهمرت دموعها تتذكر كلماته يوم مكث إلى جوارها هنا على الشاطئ وبدأ كلامه بـ "أغمضي عينيكي "

ـ لماذا ؟

ـ فقط أغمضيها وافتحي يداك.

فعلت لتجده يضع شيئا بيدها ففتحت عينيها لتنظر للصدف ببالغ الاستغراب :
هل ينبغي عليّ ألا أرى ذلك رومانسيا، أم أنه كعادتك سيتهرب لسانك و قلبك من الإجابة؟

وهذا ما فعله تهرب من الإجابة وقال : أحب صدف البحر وأحببت أن أهديكِ منه لتكون ذكرى النزهة الأخيرة لنا قبل عودتنا إلى بيتنا فقد انقضت أجازة شهر العسل أم أنك نسيتِ؟

ـ بالتأكيد ، لم أنسَ لكنني سأعتاد أن تتصرف دوما بهذه الطريقة

باستغراب تَسَاءل : أية طريقة؟

قامت من جواره ونفضت عن ملابسها رمال الشاطئ ثم أجابت : لا عليك ، علينا أن نعود للفندق و نحزم أمتعتنا وننام مبكرا حتى لا نتأخر عن موعد الطائرة صباحا

وتحركت خطوتين ثم استدرات لتجده قد وقف في مكانه فاقتربت لتضع على خده قبلة ثم اختصرت كل الكلمات في : شكرا

قالتها فأمسك بيدها ليستوقفها متسائلا : علامَ؟

ـ صندوق الذكريات بالأمس و الصدفات اليوم ، أتعلم ستكون أول شيئ أضعه في الصندوق.

ـ أعلم ذلك .

وهكذا كانت دوما الأفعال محرك والكلمات شحيحة ثم بمرور الأيام تلاشت و ارتكن كل منهما على أفعاله لتكون كفيلة لإثبات ما يحمله من مشاعر ولن يقدم أحدهم تنازلا أو تغير أو كسر لقواعد حياة هم من وضعوها ثم اعتبروها تنزيلا وألبسوها من القدسية ما يكفيها حتي لا ينتقدوها وقد انغمسوا فيها.

على السفرة جلسا وقد جلس هو على رأسها وأمامه حاسوبه و أوراق عمله وبالجهة المقابلة جلست هي منهمكة في تحضير رسالة الماجستير خاصتها ، ثلاث ساعات تعاقبت لم يرفع أحدهما عينه عن شاشة حاسوبه ولو ألقيت بخِياط لسمعت لها صوتا جهورا.

حتي رن الهاتف فزفر حازم ثم قامت علا من مكانها لترد فالتفت ناحيتها لأنه يدرك بالتأكيد أنها حالة ولادة ، ثم نظر للساعة ليجدها التاسعة وما إن أغلقت الهاتف حتى تَسَاءل : المشفى؟

وقبل الإجابة كانت قد شرعت في تبديل ملابسها مما دفعه للقيام من مكانه واقفا عند مدخل الغرفة و عندها أجابت : حالة ولادة.

أشار للساعة و عقب : لست معترضا ولكن الآن ، الوقت متأخر وأمامي عدة أوراق يجب عليَّ أن أنهيها و عندي عملي بالصباح ، كيف ستخرجين وحدك الآن

ـ أولا لايزال الوقت مبكرا ، ثانيا لن أتأخر عن المسموح ، ثالثا إن نزولي ضرورة ، أنسيت أنني فعلتها يوم احتاجت حنان لي وكان الوقت قد تأخر أكثر من ذلك

ـ أدرك أنه عملك و أكن له كل الاحترام ولكن عزيزتي أمامك على الأقل ساعة حتى تصلين للمشفى وما لا يقل عن ساعتين أو ثلاث في غرفة العمليات حسبما تحتاج الحالة ، هذا يعني أنك قد تعودين بعد منتصف الليل ، ألا ترين في الأمر مشكلة ؟

ـ وهل تعتقد أن علي الآن أن أجلس معك للبحث عن حل بينما هناك امرأة تعاني آلام المخاض و على وشك الولادة.

كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها وحملت حقيبتها و اتجهت للنزول و قبل الخروج من باب الشقة وقفت لتنهي الحوار بالاتي : لا تنسى أننا قد عقدنا اتفاق منذ البداية عملي خط أحمر وأنت لم تبدِ أي اعتراض في هذا بل قمت بتشجيعي واحترام رغباتي والآن عليك الوفاء بوعودك و تقدير أن هذا هو عملي وأنا لا أملك لظروفه أي خيارات أخري

كعادتها مفوهة أنهت كلامها و خرجت مسرعة وتركته يتخبط من الضيق ، حازم لم يعد باستطاعته الحزم فثمة أمور يتفلت زمامها من يده وبعيدا عن قدر الضيق الذي امتلكه دار برأسه سؤال ؛ أين ستكون نقطة النهاية لسريان الطموح؟ قرار الإنجاب مؤجل باتفاق بينهما بعد مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بها وحصوله على ترقيته.

"علينا تأمين مستقبلنا ومستقبل أولادنا ".

لطالما كانت هذه الجملة دوما هي محور تفكير كليهما ، ودارت الأيام بدورها تسحب كل واحد منهما معها في دوامات لا متناهية من طموح لطموح ولن ينكر هو أنه كان سعيدا لنجاحها وكونها ليست كالنموذج المعتاد لأغلب المتزوجات وهي بدورها فرحة لكونه يدعم نجاحها وهي تبادله دعمه

ثلاث سنوات من النجاحات المتتالية ثم ....

"وقفة ملل"

وسؤال طُرِح أمام أوراق السفر ، متي سينتهي السباق؟؟؟

"لا أدري لكنه مستقبلي"

إجابة أذهلت كليهما فجعلتها تعيد السؤال ربما بصيغة أخرى : حازم ، هل حقا تريد السفر؟

بدى مشوشا وأجاب : أعتقد أنها فرصة لا يمكن لمثلي تفويتها

بقلق تساءلت : وعملي ودراستي و............
قبل أن تكمل جاءتها المقاطعة حادة ومتعصبة : هذا كل ما في الأمر إذن عملك و مستقبلك
ثم ضرب بكفيه ساخرا و أكمل : ظننتك ستتحدثين بشأن الإنجاب أو سنتحدث عن شكل حياتنا لكنني نسيت أن عملك أولا ، أولا وثانيا و ثالثا ، أليس كذلك ؟
ـ الآن إذن ، قل أن كل ما مضى كان تمثيلا وأنك كنت تقبل عملي على مضض ، من يسمعك يظن أنك تتضايق من طريقتي وكأنك مختلف ، الساعات و الساعات تمر معك وأنت صامت تتابع حاسوبك وهواتفك ، عملي مهم لكنه أبداً ما كان أولا بينما أنت منذ أن عرفتك إلى الآن و لا تفكر إلا بمستقبلك و الآن قرار سفر لفرنسا دون النظر لأي تفاصيل ، فقط لأنها فرصة لا يمكن تفويتها ، من قال لك أنني لا أريد الإنجاب والآن لكني لا أريد السفر لا أريد ترك عملي و لا حياتي هنا
اقتربت منه ناظرة لعينيه و قالت بهدوء : ما رأيك بهدنة لالتقاط الأنفاس مادام الطريق وعرا ، دعنا نرتاح قليلا ونفكر في حياتنا.
كلماتها استمالت قلبه لن ينكر لكن ماذا لو أن غيره حصل على فرصته؟ تمتم بين شفتيه بهذه الجملة و فكر لم لا تتنازل هي في مقابل موافقته و الحصول على الفرصة

والمميزات المضاعفة؟ بدورها تساءلت: بل لِمَ لا تتنازل أنت وتترك الفرصة ونستكمل طريقنا هنا؟

"cut"

هكذا دوما تنتهي المشاهد في الأفلام وأحيانا الحياة ، حين يشتد الاحتدام بين طرفين أدركا من كثرة التشبث برؤيتهما أنه ليس ثمة حلول ومن يحاول التدخل بينهما يصدمه العناد.

"لست المسؤل عما آلت إليه الأمور"

قرار بالتنصل فلم يعد هناك داعي للعتاب وانتهي بدوره كل شيء وها هي تقذف بالصندوق في منتصف البحر تتبعه الصدفات والقصاصات و الأوراق فما الفائدة من الإبقاء على الذكريات, ما فائدة من العبث بماضي لن يكون له حاضر أو مستقبل؟

خرجت من البحر باتجاه الشاطئ لتتفاجأ بسيارة تجاور سيارتها, تعرف صاحبها, تعرف أنه حازم لكن ما الذي جاء به؟

التفتت حولها لتجده يقف على مقربة ، ينظر جيدا لما فعلته بالصندوق وما حوى ، فكر بحزن فيما يمكن له أن يقول فلم يجد ، اقترب منها وظل ينظر لوجهها ولعينيها الباكية ، انتظر أن يسمع منها أي تعقيب لكنها لم تفعل ظلا على إيثار

الصمت لدقائق ثم تنهدا واتجه كل منهما لسيارته ولطريق عودته ورغم أن الطريق مشترك إلا أنهما لم يعودا يملكان الوجهة ذاتها.

شردا في الطريق وبدى أن التخلص من الذكريات لا يكون بإغراقها خاصة إذا ما غرق العقل بها فتدفقت كشريط متسلسة أحداثه تتتابع دون توقف يعلو صداها بالأذن حتى أنهما ما عادا يريا أو يسمعا غيرها.

وتعالى زامور إحدى سيارات النقل لعله ينبههم بأنهم أمام منحدر وراح يصرخ لعل أحدهم ينتبه ، يريد أن يتفادى على الأقل واحدا منهما لكن السيارتان التحمتا ببعضهما البعض وكأنهما يريدان نهاية مشوارهما معا رغما عن أنف صاحبيهما، وانتبها لِمَ بات يحدث ولكن كعادتهما بعدما فات الأوان أراد عندها أن يفاديها لعلها تنجو وأرادت هي أن تفاديه لعله ينجو ولكن لم يستطع أحد أن يوقف الحادثة وارتطمت السيارات وامتزج صوت الارتطام بصوتها هي تناديه و هو يناديها

ـ حازم

ـ علا

ـ أين أنتِ ناوليني يدك

ـ لا أدري فأنا لا أشعر بها

الأصوات من حولهم ترتفع لعل أحد يستطيع إنقاذهما ولكن ما بدى على الوجوه وهم يسحبوهما أنهما قد فارقا الحياة وتلاشت فرصة إنقاذهما

ـ يبدو أن القدر كان له رأي آخر وقرار مخالف لقرارنا

ـ تُرى أكان لكل ما نفعله قيمة ، هل كان يستحق كل تلك التضحية

ـ هل سنتعاتب بعد الموت ، الآن سنتذكر ما كان ينبغي أن نكتبه بورقة الإجابة بعدما سُحِبت الأسئلة

ـ سامحِني أنا أحبك

ـ بل سامحيني أنت وأعلم أنني أحبك أيضا

"لا إلا إلا الله"

قالها بدوره من غطى وجوههما وقد تُركوا على جانب الطريق بانتظار سيارة الإسعاف لتنقلهما إلى مثوى أخير لا رجوع بعده ، الطموح الانتصار الإنجازات أين ترجمة المفردات هذه بعدما توقفت الطاحونة التي كانا يدوران فيها عنوةً والآن على أي شئ ستدور المنافسة وقد انتهي المضمار وخسر كليهما والقصة ما عاد هناك مداد لكلماتها ، قصة اثنين اختارا لجمعهم الفراق ثم اختار الفراق أن يجمعهما .

الخاتمة

كيف ، ماذا ، لماذا ، متى ؟

أسئلة كانت تطرح دوما طوال الطريق ..

من توقف ليجيب أضاع من الوقت والعمر الكثير

ومن تركها ومشى ليكمل الطريق لنهايته ، عند النهاية استوقفه ما فاته

الأول يغبط الثاني ظناً منه أنه انتصر يوم فاز وأسرع
والثاني يغبط الأول ظناً منه أنه امتلك الحكمة يوم وقف وتمهل
وعند نقطة النهاية يبدو أن الكل يندم ، كونه يظن أنه كان
هناك ما هو أفضل
أفضل لأنه فقط لم يجربه ناسيا أن تجريب كل شئ بالحياة
استحالة
وهنا تكمن النقطة ويعلو بياضها إذ ما رأها بصرك
فعرفت ما تملك و احترمت تجربتك بقصورها وأخطائها ، تمهل
أو إسرع الخيار لك وحدك لكن بغض النظر عن القرار ، ابحث
عن النقطة البيضا خلف كل موقف .
و هنا
كفى
و السلام عليكم

نقطة_بيضا

رانيا الطنوبي

تمت بحمد الله